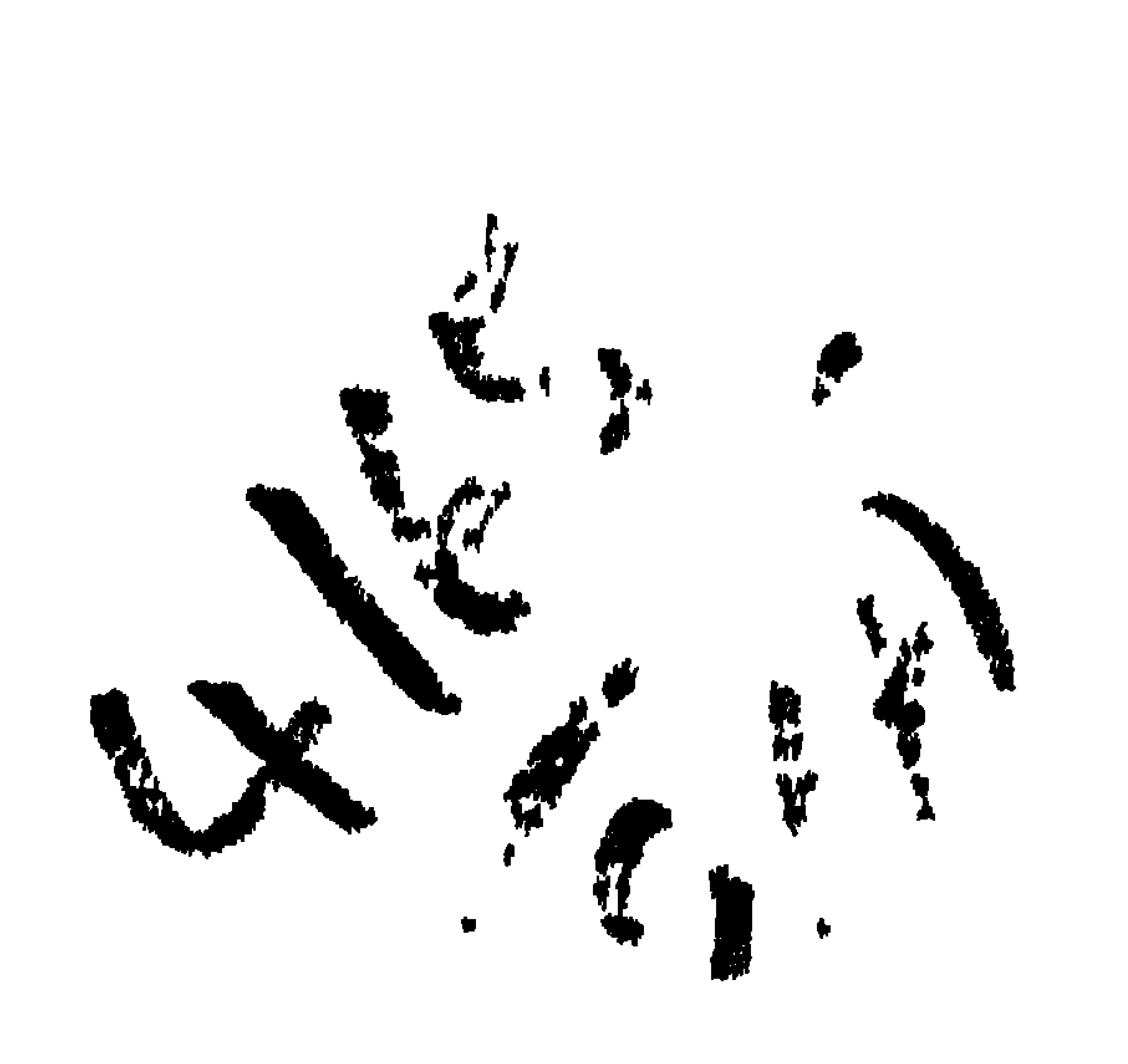




ابتسامات ودموع

أو

الحب الالماني

أوراق متناثرة من مذكرات غريب

جمعها ف . مكس مولر

نقلت الى العربية بقلم « مي »

الطبعة الثانية

مطبعة الهلال بشارع نوبار نمرة ٤ بمصر

سنة ١٩٢١

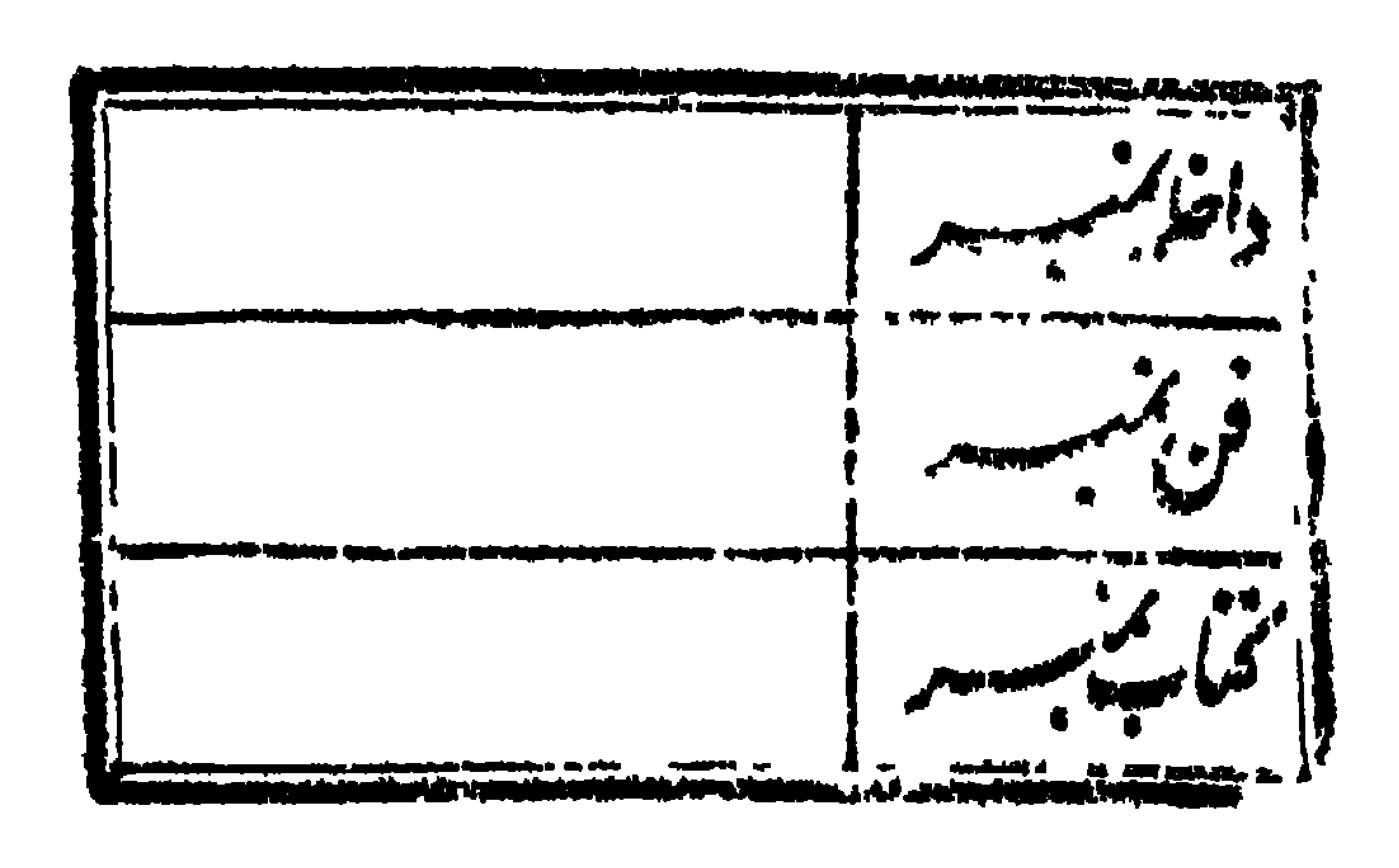


المقتطف

فريدريخ مكس مولر

الى العينين اللتين اطبقهما الموت قبل
ان الثمهما . الى الابتسامة التي لا أعرف
منها الا خيالها . الى الاسم العذب الذي
لا تهمس به شفتاي دون ان تملأ عينيّ
الدموع . الى الطفل الذي رحل الى
خالقه ويتّم فيّ عاطفة الحب الاخوي
فحرمني من حنوّ الاخ وقبلته وابتسامته
ودمعته — : الى أخي الوحيد الذي
تقاسمه الاثير والثرى

(ميّ)


داخلہ نمبر
فن نمبر
کتاب نمبر

مقدمة الطبعة الثانية

اراني راغبةً في تقديم الطبعة الجديدة بكلمة تشير الى كيفية تعريب هذا الكتاب ، وتوضح السبب الذي حملني على استبدال اسمه الاصلي « الحب الالماني » Deutsche Liebe باسم « ابتسامات ودموع » الذي عرف به لدى قراء العربية. وان أشرح ما يتناول هذه الطبعة من تغير يبدو في كل جملة تقريباً ، ومن زيادةٍ أتيت بها في صفحات كثيرة من اغلب الفصول

على اني لا أكاد اذكر الترجمة الاولى الا ويأخذ محيطي بالتلاشي ويسقط القلم من يدي لاحدق في الصحيفة البيضاء كأنها آلة سحرية تستهوي الوسيط وتسطو عليه أسرارها . ولا يطول حتى تنتقش عليها صورة المكان الذي أظلتني يومذاك سماؤه ودوت حولي أصواته . هناك حفيف الاوراق ، وتصفيق الاجنحة، وتغريد الاطيار على الغصون. ألا فاصغِ الى وقع أقدام السائرين في الطريق الحمراء الضيقة المتلوية بين أشجار الصنوبر صعوداً الى قمة اشرفت على

المرتفعات والمنخفضات يسرةً ويمنةً وشرقاً وغرباً . وانظر جانباً الى صنين وقد اثقلت ذروته تلوح حولها انعكاس الاشعة تغزل نوراً انياً يسر الى صدر الفضاء بما توصله اليه اصداء الغبراء من شكاية وتأوه . تنبثق من جانبه سلسلة آكام تتساند مستديرة ، مستطيلة ، ناشذة ، وتظل في انتقاص وتصاغر على انسجام وحسن دراية حتى تسجد بواقي الصخور منها على الشاطىء . كأن أعالي صنين أنفذتها برسالة الى البحر لتعود بالجواب عليها . والبحر ، آه ! ترى ماذا يقول ذلك الازرق الافيح المائج بهدوء ودلال ، كأنه ارجوحة الاثير تهزها أيادي آلهة الهواء لتنوم فيها طفلاً عجيباً دهشت بجماله السماوات وافتتنت الارضين بغرامه ؛

نعم ، ها أنذا في ظهور الشوير بلبنان ؛ ذلك المصيف المنيء . نحن في صميم القيظ وقد تقاطر المصطافون حتى ضاقت بهم المنازل والفنادق . والجماعات التي تباينت أفرادها علماً وتهذيبا وارتقاء وتنافرت عادات ومشارب واطماعاً ، ها هي تعيش تحت سقف واحد وتتبع في امور جمة نظاماً فرداً وضع لضيوف النزل جميعاً . ومن هذا الاجتماع بالغرباء ، ومحاذاتهم أياماً

واسابيع وشهوراً ، والجلوس واياهم حول مائدة واحدة مرة بعد مرة ، وحدة تنشأ وتتثبت بالتكرار ؛ فضلاً عن خبرة موفورة لدرس أخلاق الناس وتمرين ميسور في أساليب المعاملة والارضاء

بيد اني بعد الاحاديث المسلية والضحك والائتناس اظل شاعرة بفراغ واسع ، أظل متسائلة ماذا يعرف اولئك المتنادمون المتسامرون المتحابون — من بعضهم بعضاً ، أظل تائقة الى الوحدة والاختلاء تحت اشجار الحرج الصغير . لذلك سعيت في ان يبنى لي هذا الكوخ الضيق من خشب الغصون ويسقف بالاعشاب اليابسة ، وليس في داخله من حطام الدنيا سوى مقعد وطاولة نضدت عليها كتب قليلة . وانما دعي كوخي « الكوخ الاخضر » لاني جللت جدرانه من الداخل بنسيج أخضر . عدا عن أفنان مخضوضبة حنت عليه وخضرة غضة أحدقت به من كل جانب . هنا تعرفت بمكس مولر وبكتابه الجميل . تعرفت به في الخلوة لان الارواح الكبيرة تنكمش في المحافل العادية ولا تتجلى الا في العزلة لمن كان على استعداد لتلقي فيض بهائها

•

كنتُ شرعت ادرس الالمانية في القاهرة ابان الشتاء ولم ينلني منها سوى عشرين درساً أو أكثر قليلا . ولما تزودت بالكتب قبيل الرحيل أضفت الى حقيبتي كتاباً ألمانياً لاغير، هو « الحب الالماني » هذا . وقد وقع عليه اختياري لان السيدة البروسية التي تتلمذتُ لها ذكرته ممتدحةً أسلوب مكس مولر المشبع فكراً ومعرفة على سهولتـه ورشاقته . ونسبتْ هذه الرشاقة وتلك السهولة الى كون المؤلف شاعراً بفطرته ووراثته رغم اشتهاره بالعلم والبحث، والى كونه انجليزياً بوالدته كما صار بعدئذٍ انجليزياً بزوجتـه وباستيطانه انجلترا أعواماً طوالاً . فكان له من اجادة اللغة الانجليزية ومعالجتها والتأليف فيها مساعد قويّ في تجريد جملته الالمانيـة من التطويل والصعوبة والابهام الملازم لها غالباً عنـد كتّاب الالمان ، لا سيما العلماء والفلاسفة

انشأتُ أتصفح الكتاب في عزلة « الكوخ الاخضر » ولم أفرغ من الفصل الاول حتى تملكتني روحـه الشعرية الفلسفية وأرهفَتْ ذهني فتمكنتُ من الاحاطة بالمعنى العام وان فاتني من معنى المفردات كثير . وما اتيت عليـه الا

وعدتُ أراجع قراءته مرّاتٍ حتى ابتهجت بمحاسنه نفسي المنفردة. وعلى قصر باعي بالعربية التي كنتُ نشرتُ فيها مقالات ابتدائية قلائل، ومع اني لم يكن لديّ معجم ألماني، استعنت بالقلم والقرطاس لأرسم بلغتي تلك الخطوط البديعة؛ ولو كان لي مقدرة مكس مولر الفكرية والانشائية لما أفصحت عن حركات النفس بسواها. وقد قال لي أحد الادباء عندما نشرت « ابتسامات ودموع » في ذيل «المحروسة» في الشتاء التالي، قال « أساءل ذاتي ساعة أقرأ ذيل « المحروسة » أأنتِ ناقلة مكس مولر الى العربية أم هو ناقلك الى الالمانية ؟ » . في هذه الكلمة، التي تخال تملقاً للوهلة الاولى، حقيقة أولية هي كل قوة الكاتب الوجداني الذي انما نحكم له بالتفوق لانه أحسن التعبير ليس عمّا يشعر به هو الكاتب، بل ما نشعر به نحن القراء. وكيف لا نحكم له بذلك وهو الغريب الجاهل أسرار قلوبنا قد اطلع على خفايانا وبسطها لنا وللعالمين. وكتاب « ابتسامات ودموع » من هذا القبيل آية سحر وبراعة. لا يقصر على الوصف بل هو مهبط وحيٍ للنفوس الحساسة

***

كان ذلك في صيف ١٩١١ وبي تيقظ الفتاة الأولى ، واستفسارها الصامت ازاء المسائل الكونية والعمرانية والروحية ، واعجابها المنتبه المتحفز للاهتمام والتحمس. وبي كذلك خجلها وحيرتها وترددها

وكنت كثيبة . كنت اكتئب لغير سبب ، واكتئب للعوامل الدافعة بالاجتماع ، الشاغلة أفراده ليلاً ونهاراً . حتى اذا احتميت بحمى الطبيعة والقيت عليها اتكال روحي رافقت الكآبة حبي واتكالي . الكآبة خاتمة شعور الانسان ازاء الجمال والقباحة ، والخير والشر ، والعدل والظلم ، والكره والحب ، والفوز والخذلان . اليها تنتهي حركات التأثر في جميع حظائر النفس كأن لا شيء وراءها سوى المبهم والمجهول والظلام الدامس . أهي ناتجة عن شعور المرء بضعفه حيال قوة العالم وبعجزه عن تحويل الاشياء عن مجراها ؟ قد يكون . ولكن الواقع ان التنهد والامتثال نهاية كل عاطفة وكل فكر ، كما ان كل عمر بشري يختم بارسال الزفرة واسبال الجفون

كنت قبلئذٍ أسير لا ألوي على شيء ، ان وقعت عيني على شخص أو طرق سمعي موضوع نظرت في هذا وذاك

نظرة استخبار سطحيّ . أما هناك فطفقت ألقي على نفسي أسئلة منطلقة من جهلي المتعطش الى الارتواء . من أنا ؟ ما هو موقفي في الدنيا ؟ لماذا تزعجني بعض الاحاديث ، وتسخطني بعض الوجوه في حين ارتاح لأحاديث أخرى وتجذبني وجوهٌ غيرها ؟ لماذا أحبُّ هذه ولا أحب تلك ؟ لماذا ينفث هذا في روعي وجوب احترامه فاسعد بتوجيه عاطفة جليلة الى موضوع يليق بها ، بينا ذاك الآخر لا يلهمني غير الهزؤ والامتهان ؟ لماذا يفرحني الناس وأفرحهم ؟ لماذا يؤلمني الناس وأولمهم ؟ ومن أين لي ولهم هـذه القدرة العميقة النافذة ؟ اسئلة نقضي العمر ناشدين عنها أجوبة ولا نفوز قبل الموت بالجواب الشافي . وهكذا صار كوخي الاخضر سجناً اختيارياً ، وشرفتهُ نافذةً مفتوحة على ميدان العجائب والغرائب وقد تسنى لي أن استعرضها واتفحصها بفكري سائلة عن ماهيتها دون أن يكون ثمت سامع او مجيب

الفكر ! ما أجذب الفكر اذا هو مزج بطلاوة العاطفة وخيمت عليه أوشحة الخيال ! عشت السنوات الاولى من حياتي دون تفكير ، وها قد غدا الجناح الملون بألوان قوس

السحاب يضرب جبهتي ليفسح له فيها وكراً فصار كل موضوع، وكل شخص ، وكل مشهد طبيعي ينفحني بتأملات زرقاء ، وردية ، ذهبية ، فضية ، رمادية تحوم حولي تارة ، وطوراً تجثم فيّ متعاونة مع ما في الكتاب على ايصالي الى روح الانسانية . فاكاد اسمع دقات قلبها وصدى انينها فادرك انها شقية بجهلها واضطرابها وهمومها ، وانه قدر على المختارين من بنيها ان يتألموا أضعافاً لانهم السابقون الى مقاتلة المجهول، وكجميع الطلائع يتلقون ضربات المصادرة والمقاومة . فلا تضعف عزائمهم ، ولا تكل أقدامهم ، ويثابرون على تلمس السبيل في حالك الظلمات ، ويسيرون الى الامام حاملين غنيمة الجهود الانسانية والثقة بتحقيق الآمال

***

والطبيعة ؟ يا لاستهواء الطبيعة وقد انتشرت الاشجار والصخور على الجبال والوهاد فرقصت هناك الاشعة وانسلت هنالك الاظلال ! يا لخشوعها وقد تجمعت منازل القرى حول قبة الاجراس المنتصبة كالمسلة ، بل هي قامت في الوسط كـكاهن مد يمينه نحو العلاء مبتهلاً وجثت حوله الرعية

خاضعة ضارعة ! يا لبراعة الطبيعة بالتنوع في لبنـني الجميل !
لقد تصرفت بجميع فنون الجمال فهي منه كل يوم في حلة جديدة
وهيئة طريفة . فساعةً تغرق الكائنات جميعاً في اوقيانس
ضياء يبهر الانظار ويذهل العقول ؛ وساعة تزحف كتائب
الضباب المتراصة من اطراف البحار وتهجم فيالق السحب
المتكاثفة من أقاصي الآفاق فتكتسح ما قام أمامها وتبسط
رواقها الرمادي ، كأن العالم في دوره السديمي . ويعتدل
النور والحرارة يوماً ، ويبرز روح التيقظ والكمان
فتصبح ألياف كل نبت ، وكل قطرة ماء ، وكل ذرة هواء ،
شاعرة بسر الوجود الخطير ، تؤيد بحركتها اللطيفة ضرورة
مساعدتها وحقيقة كيانها ؛ ويخال الهواء حساساً كقلب
الولهان داوياً كالنحاس المجوّف . وآناً تبدو خطوط
الموجودات ونبرات الاصوات بوضوح غير عادي ، وتنمو
روعة الاشياء كأنها كبرت واتسعت وربضت في مجاهلها
الاهوال باتفاق خفي بين آلهة القدر . فيتولاني افتتان به
ينقلب الزمن والمسافة سائلاً متحركاً أو عباباً متموجاً يحملني
تيارهُ الى حيث لا ادري من عوالم الخيال ؛ شأن الحياة

بالانسانية الضعيفة الساذجة ، الانسانية التي تجهل الغرض من تحركها ووجودها ولا تفتأ تذوب شوقاً الى بلوغ غاية تزعم الاحاطة بها وهي في الواقع لا تعلم ما هي !

وكم خلتُ القوة الحيوية غباراً ذهبياً أو سيالاً اثيرياً منبعثاً من البحر والجبال والكائنات جميعا ؛ وكم عبدت الطبيعة عبادة حارة خاشعة كعبادة المتدينين والشعراء والمتيمين ، أولئك الذين يقدسون الحياة خارجاً عن اشخاصهم ومحصورة في اله ، او رمز ، أو انسان ؛ وكم ملأت الدموع عينيّ شكراً للحياة ، شكراً للطبيعة ، شكراً لجميع الموجودات ، شكراً لهذا الكتاب الذي تتهادى بين سطوره خيالات اليأس والامل والبكاء والابتسام والحب والموت واللانهاية

اظنني قلت في مطلع الكلام ان القلم سقط من يدي ، وكان ذلك وهماً . ها هو القلم يجري على الصحائف قليلا قليلا مستحضراً تلك الساعات تباعا كما تتعاقب الصور المتحركة على غطاء المرسح ، وما الالفاظ سوى رسوم ايمائية لحقيقتها . غير ان النفس تدخرها ككنوز ثمينة لانها كبيرة الشأن في تطوّري الروحي والفكري

« الحب الالماني » ؟ كلا ، ليس هذا الكتاب حباً ألمانياً فقط بل هو خلاصة بسمات الانسان وعبراته . فسميته « ابتسامات ودموع » . فان كان ذلك تزييفاً لفكرة المؤلف الواجب احترامها على كل مترجم ، فهو صادق من حيث اقتناعي الخاص ، أمين للصورة التي ارتسمت منه في نفسي

***

انتشر الكتيّب وكادت نسخه تنفد منذ ثلاثة أو اربعة اعوام فحال دون طبعه اعتقادي بوجوب اعادة الترجمة . لاني وان رأيت بسرور اني ألممتُ بروح الكتاب الماماً يكاد يكون تاماً الاّ انه كان يخجلني ويسؤني معاً اني اهملت طائفة من الافكار الجميلة والمعاني الرائقة التي لا يجوز الاغضاء عنها

والآن اهدي اليك ، ايها القارىء ، هذه الطبعة الجديدة . لقد تقيدت بالاصل معنىً وتعبيراً محاولةً ابرازه الى العربية بصيغته الشعرية البسيطة خالياً من الاستعارة الغريبة والتنميق الشرقي . والالفاظ التي اكثر المؤلف من استعمالها مثل « حاوات » و « خيل اليّ » و « ظننت » و « روحي » و « نفسي » و « قلبي » ، جميع هذه الالفاظ وغيرها وضعتها في اماكنها

لانها ضرورية للغة التذكار

وستحب هذا الكتاب سواء أكنت معلماً أومتعلماً ، فيلسوفاً أو شاعراً ، سياسياً أو تاجراً ، سعيداً أو شقياً ، كبيراً أو صغيراً. ستحيا فيه وبه كما حييتُ. ستنمو به وتتوحد واياه حيناً فينتزعك من ميدان المزاحمة والمنافسة والحقد والتهكم والحسد والاجهاد . ستتوحد واياه مستدعياً ماضيك ، أو مفكراً في حاضرك ، أو مترقباً مستقبلك . أوهو يمثل لك فصولاً من ماضيك وحاضرك ومستقبلك جميعاً في آنٍ واحد كائنا عمرك ما كان ، لان العواطف لا تفنى والقلب لا تدركه الشيخوخة . بل يسير جامعاً من يأسه وآلامه وانتصاره واندحاره خبرة وقوة توصلانه الى سبل جديدة ومعارف مطلوبة . وحسبه أن ينبّه فيك الذكريات الحلوة المرّة من مباغتات الحب والحياة والموت والابتسامات والدموع وهي ارث بني الانسان أجمعين

(ميّ)

العلاّمة اللغوي مكس مولر

كان مكس مولر عالماً من شيوخ العلماء واستاذاً جليل الشأن طبَّقت شهرته الخافقين وكان له اليد الطولى في وضع علم اللغات وتسهيل الاطلاع على عقائد الامم الشرقية . وهو الماني المولد انكليزي الموطن ولد بدساو من دوقية انهلت سنة ١٨٢٣ وأبوه شاعر الماني أورثهُ قريحتهُ وتخيلنه فامتاز من صغره بالذكاء وسرعة الخاطر وقوة الخيال حتى يكاد نثره يكون شعراً لما فيه من الصور الخيالية . وقد قال في هذا الصدد « اني ابن شاعر وقد بذلت جهدي العمر كله لكي لا اكون شاعراً » لكن الطبيعة لا تغلب ولله دَرُّ من قال

واسرعُ مفعولٍ فعلتَ تغيراً تكلُّف شيء في طباعك ضدهُ

وكيف تغلب وقد ربي على ما ينميها ويقويها فقد كان بيت أبيه نادياً لرجال الادب من الشعراء والمغنين حتى انه علق صناعة الغناء وصار غرضهُ الاكبر ان يصير من كبار الموسيقيين وبقي على حبه لها العمر كله درس في ليبسك وبرلين وباريس وامتاز وهو في كلية برلين بالاجتهاد وسرعة التحصيل وذهب مذهب كنت الفيلسوف الالماني ولم يحِد عنه . ثم مال الى درس اللغات الشرقية فنال منها النصيب الاوفر وبرع في السنسكريتية والفارسية وترجم الهيتوبادسا (كتاب قصص الهنود) من السنسكريتية ونشرها وهو في العشرين من عمره . ثم انتقل الى باريس ودرس على العلاّمة المستشرق الاستاذ ايجن برنوف ولم يكن على سعة من العيش لكن كان من حسن بخته أن صادقه البارون بنصن العالم الكبير فمدَّ اليه يد المساعدة وكتب عنه الى الارتشديكن كارل الانكليزي يقول :

« لقد أوصاني بعض ذوي المقامات العليا بشاب عمره أثنتان وعشرون سنة له مقام كبير في عيني شلنغ (فيلسوف الماني) أشهر نفسه بترجمته الهيتوبادسا من السنسكريت وهو واسع الاطلاع بارع في كل شيء ويود أن يقيم في انكلترا بضع سنوات .. وهو ابن الشاعر اللغوي المشهور وليم مولر والذي أعلمه من امره انه رائع الآداب رزين العقل »

وقال ان أعظم اكتشاف اكتشفه البارون بنصن لفائدة اللغات الشرقية هو اكتشافه مكس مولر . وقد ساعده البارون بنصن والاستاذ ولسن على الشروع في العمل الذي بقي عاكفاً عليه الى ان ادركته الوفاة فوكلت اليه شركة الهند الشرقية ترجمة الرغ ڤيدا كتاب ترانيم البراهمة وهو أساس الآداب السنسكريتية . وقال له بنصن حينئذٍ « لقد وكلتَ بعمل يكفيك العمر كله قطعة كبيرة لا تُنحت ولا تصقل الاَّ في سنوات كثيرة لكن لا بدَّ لك من أن تعطينا تنفاً منها من وقت الى آخر » فجعلت هذه التنف تنهال من قلمه كالمطر . وبقي عشرين سنة في تحرير الرغ ڤيدا لكنه لم يقتصر عليه بل اشتغل بمواضيع كثيرة وبرع فيها كلها فدرس اللغة الانكليزية وصار من البلغاء فيها كلاماً وانشاء وله الخطب الرنانة التي كان الناس يتقاطرون لاستماعها ولو كانت في اعوص المواضيع اللغوية والفلسفية لبلاغة عبارتها وسهولة مأخذها . والكتب الكثيرة التي أعيد طبعها مراراً لرغبة الناس فيها . ومن هذه الكتب لغات دار الحرب (أي بلاد الهند) طبعه سنة ١٨٥٤ . وعقائد الامم طبعه سنة ١٨٥٦ وتاريخ الآداب السنسكريتية طبعه سنة ١٨٥٩ وخطب في علم اللغات طبعها بين سنة ١٨٦١و١٨٦٣ وخطب في علم الدين طبعها سنة ١٨٧٠ وكتاب التُّنَف في أربعة مجلدات طبعت بين سنة ١٨٦٨و١٨٧٥ وخطب في أصل الدين ونحوه

طبعت سنة ١٨٧٨ ومقالات مختارة طبعت سنة ١٨٨١ . ومقالات في ترجمات المشاهير من اصدقائه ومن معلمي بلاد الهند طبعت سنة ١٨٨٣ وكتاب في الدين الطبيعي طبع سنة ١٨٨٩ . وحرر الرغ فيدا في ستة مجلدات كبيرة فيها ثمانية آلاف صفحة متناً وشرحاً وقد فحصه سبع مئة من البراهمة فحكموا انه افضل نسخة وأصلحوا نسخهم عليه . وحرر كتب المشرق الدينية وهي خمسون مجلداً . وله غير ذلك من الكتب والمقالات . ومن آخر مقالاته مقالة في أديان أهالي الصين نشرت في جزء شهر (نوفمبر سنة ١٩٠٠) من مجلة القرن التاسع عشر

وحالما ظهرت مقدرته في علم اللغات اختير استاذاً فيه في مدرسة اكسفورد الجامعة فاقام فيها نحو خمسين سنة . ولبعض العلماء مثل هكسلي وتندل وفوستر مقدرة فائقة على بسط المواضيع العلمية وهم يخطبون فيها حتى ترى الناس يتقاطرون الى نوادي الخطابة عن طيب نفس ولو كان الموضوع من المسائل الطبيعية العويصة . فجرى مكس مولر مجراهم وبلغ الطبقة العليا بينهم فكان يخطب في علم اللغات وقد لا يقول شيئاً جديداً او شيئاً لم يذكره أحد قبله ولكنه كان يفصح عنه على أسلوب يختلب الالباب لم يسبقه أحد اليه حتى ذاع اسمه في البلاد الانكليزية كلها وصارت خطبه من المواضيع التي يحدث الناس بها في مجتمعاتهم وولائمهم وذهب كثير من أقواله امثالا

ولم تكن آراؤه كلها مما يقوى على النقد والتمحيص ولا لقي الطاعة العمياء من معاصريه والتسليم التام لمقدماته ونتائجه بل لقي من علماء عصره كل منتقد عنيد كما ترى في ما ذكرناه في المجلد السادس عن رأيه في أصل اللغات وانتقاد الاستاذ هوتني عليه . وكذا مذهبه في اشتقاق

الشعوب الاوربية من الشعوب الآرية وتولد الاوربيين والهنود من أصل واحد ومهاجرة الاوربيين الى اوربا من قلب آسيا فان كثيرين من نخبة العلماء يخالفونه الآن في هذا المذهب . ويقال بنوع عام انه كان متطرفاً في مذاهبه متسرعاً في أحكامه لكن لا ينكر أحد أن علم اللغات (الفيلولوجيا) الذي وضعه الاستاذ بوب سنة ١٨٣٥ لم يوسعه أحد مثل تلميذه مكس مولر . وكتابه في عقائد الامم لا يخلو من آراء غير سديدة ولكنه هدى العلماء الى مكتشفات عديدة في هذا الموضوع وأوضح كثيراً من الغوامض بذكاء عقله وقوة بداهته

ولا شبهة عندنا في انه وسّع نطاق علم اللغات ورغّب الناس في درسه وعلّم الاوربيين والمشارقة انفسهم كثيراً مما لم يكونوا يعلمونه من تاريخ لغاتهم ومعتقداتهم ولكننا نرتاب كثيراً في ان ذلك افاد سكان المشرق سياسياً فقد بذل جهده مدة خمسين سنة ليقنع الانكليز ان الهنود ابناء أعمامهم لكن هذا لم يغير رأي الانكليز في الهنود ولا افاد الهنود مثقال ذرّة . ومن لا يقنعه قول الكتاب ان الناس كلهم من اب واحد وام واحدة لا تقنعه آراء العلماء وأقوال الفلاسفة

وكان رضيّ الاخلاق كثير الاصدقاء يقصده الزوار من أقطار المسكونة ويكاتبه الناس بلغات شتى . اختار انكلترا وطناً له لكن حب المانيا وطنه الاصلي لم يهجر فؤاده فلما نشبت الحرب بين فرنسا والمانيا سنة ١٨٧٠ نشر خمس مقالات في جريدة التيمس دافع فيها عن سياسة بسمارك وأقام الادلة على انه كان يقصد بها السلم لا الحرب . وبقي العمر كله عالماً المانيّا بين العلماء الانكليز . وقد بذل الانكليز جهدهم في اكرام مثواه وخلقوا له منصب استاذية اللغات الاجنبية خاقةً لكي

لايحرموا فوائده ولا يدعوه يهجر بلادهم. ثم أبدلوها باستاذية علم اللغات (الفيلولوجيا) . ولما كثرت اشغاله وودّ أن يعفى من هذا المنصب لانه لم يعد قادراً على القيام به عينت المدرسة استاذاً آخر نائباً عنه يقوم باعبائه وابقت الاستاذية له . ولـكن لما خلت كرسي استاذ السنسكريت وترشح لهـا هو والاستاذ الانكليزي مونير وليمس فضّـل المنتخبون الاسـتاذ مونير وليمس عليه لا لأنه اكفى منه لهذا المنصب بل لانه انكليزي ومكس مولر الماني فاستاء من ذلك لـكنه لم يحقد على الذين فضلوا غيرهُ عليه· وود مراراً أن يترك اكسفورد واما اكسفورد فلم تتركه وقد اكرمته كما أكرمت أشهر تلامذتها وأعظم اساتذتها وكان الصلة المتينة بينها وبين علماء اوربا ولا سيما علماء المانيا حتى ان امبراطور المانيا كان يبعث اليه بتلغراف التهنئة كلما فازت اكسفورد في سباق او نحوه

توفي في الثامن والعشرين من اكتوبر سنة ١٩٠٠ في بيته با كسفورد على أثر مرض عقام في كبده واحتفل بدفنه في غرة نوفمبر وحضر الاحتفال الجنرال غودفراي كلارك من قبل جلالة الملكة والمرشلز ستينورتز من قبل جلالة امبراطور المانيا وبعث الامبراطور باكليل فاخر من الازهار البيضاء وضع على النعش وقد كتب عليـه « لصديقي العزيز » وبعث ملك اسوج اكليلاً من الزنابق · وحضر الاحتفال أيضاً ولي عهد سيام ونواب المدارس الجامعة والجمعيات العلمية

(المقتطف عدد نوفمبر سنة ١٩٠٠)

مقدمة المؤلف

الحرقة اللاذعة قلب من جلس الى منضدة طالما اتكأ عليها صديق نام الآن في القبر ليستريح - ترى من لا يشعر بتلك الحرقة بعد فراق الحبيب ؟ من ذا الذي لم يحاول ولو مرةً فتح أبواب حفظت اسرار فؤاد يختفي اليوم وراء هدوء المدافن وجلالها ؟

هذه رسائل احبها كثيراً ذاك الذي أجمعنا القلوب على محبته . وهذه صور ، وأشرطة ، وكتب وُضعت بين صفحاتها العلامات والرموز . من ذا الذي يستطيع الآن تقليبها ليستشف الغاية منها ؟ وهل من يد سحرية تلم شمل هـذه الوردة الممزقة الجافة وتنفث فيها من جديد روح الحياة وأريجها ؟

كان اليونان يضعون موتاهم على فراش ناري فيلتهمها اللهيب . واعتاد الاقدمون ايداع النار كل عزيز لديهم ، وانما

النار مستودع امين لهاتيك الذخائر

كذلك يقرأ الصديق الاسيف صحائف لم تقع عليها عينٌ غير تلك التي أُطبقت الى الابد . واذ يتثبت من خلوها مما يعبأ به العالم يحملها بيد مرتجفة ويلقيها في النار ، فيضم اللهيب وديعته هنيهة ولا يطول حتى ينقلب واياها رماداً

لقد نجت الصفحات التالية من مثل هذا المقدور . ولم يكن يراد في البدء سوى اذاعتها بين خلان الصديق الراحل. أما وقد وجدت أصدقاء بين الغرباء فهي جديرةٌ بالانتشار في العالم الوسيع . وكان يودّ ناشرها اظهارها على صورةٍ اتمّ الا أن الاوراق بالية في الاصل لا يتيسر نشرها بحذافيرها

ف . مكس مولر

الذكرى الاولى

للطفولة أسرار ومميزات ولكن من ذا الذي يستطيع وصفها؟ من ذا الذي يستطيع تعليلها؟ لقد اجتاز كلٌّ منا ذلك العمر الذي تشبه ذكراه ذكرى غابة هادئة مسحورة، وخبر يوماً فيه فتح عينيه الملوَّثين بدهشة السعادة على سناء الحياة الجديدة الفائضة في روحه. يومذاك لا ندري أين نحن ومن نحن: بل العالم كله يخصنا ونحن ملك العالم باسره. حياة تخال دائمةً بلا بداية ولا نهاية لا همّ فيها ولا ألم. القلوب عندها صافيــة كسماء الربيع، عذبة كعرف البنفسج، مطمئنة قدسية كصباح أيام الاحد

ماذا يطرأ على الطفل فيقلق فيه هذا السلام الالهي، وكيف تنتهي تلك الحيــاة المشبعة سذاجة وطهارة؟ أيّ العوامل يحوّل معاني كيانه، ويميت فيه الشعور بالاتحاد والتضامن؟ أيّ العوامل يعلمه تمييز المفرد من الجمع، فينتبه فجأةً ليجد نفسه في معترك الحياة وحيداً كئيباً؟

لا تقل، ياذا الوجه العبوس، ان ذلك العامل هو

الخطية ! أوَهل يجني الطفل اثماً ويقترف ذنباً ؟ بل حريٌّ بك ان تعترف اننا لكل شيء جاهلون وانه ما علينا سوى الاستسلام والامتثال

أهي الخطية التي تنبت البذرة زهرة ، وتنضج الزهرة ثمرةً ، ثم تفني الثمرة وتذرها هباء ؟

أهي الخطيئة التي تحوّل الحشرة دودةً وتجنّح الدودة فراشةً ، وتذر الفراشة هباء ؟

أهي الخطيئة التي تصيّر الطفل رجلاً ، وتشعل منه الرأس بشيب الشيخوخة ، ثم تهمد الشيخ جثةً ، ثم تذر الجثة هباء ؟

وما هو هذا الهباء الذي تضيع فيه الصور ؟ ألا فاعترف باننا لكل شيء جاهلون وانه ما علينا سوى الامتثال والاستسلام !

ولكنهُ يحلو التلفت الى ربيع الحياة والقاء نظرة على هيكل التذكار ، سواء أكنا من العمر في قيظ الصيف أو حزن الخريف ، أو زمهرير الشتاء . بل لا بد من ساعات

فيها يناجي القلب ذاته قائلاً « وانا أيضاً أشعر بالربيع متيقظاً فيّ ! »

هذا ما اشعر به اليوم . وتراني مستلقياً على نديّ العشب في الغابة العطرية لاريح جسمي المضنى . أرفع بنظري الى زرقة السماء البادية من خلال الوريقات الخضراء وأفكر « ترى كيف كانت طفولتي ؟ »

أخالني ناسياً كل شيء لأن صفحات الذاكرة الاولى تشبه التوراة القديمة المحفوظة في العائلة أي ان أوراق الاستهلال منها ذابلة متجعدة ملوّثة ، ولا تتيسر القراءة الا بعد صفحاتٍ وصفحات ، عند السطور المحدّثة عن طرد آدم وحواء من الفردوس

طفولتي بعيدة العهد يفوتني كثير من حوادثها ولا أعي أيامها القصوى ؛ أعود بأحلامي اليها ، وانتقل منها الى الابدية التي سبقتها ، وتظلُّ البداية المبهمة متراجعةً امامي كلما تتبعها فكري القاصر لان فجر الحياة يختفي في ظلمات الغفلة والحداثة . وأنا في ذلك كالطفل يبحث عن نقطة ارتكاز السماء على الارض فيعدو حثيثاً وتلبثُ السماء مجدّدةً آفاقها .

فيتعب الطفل وتكل قدماه ولا ينال من بغيته شيئاً

على اني ما زلت أذكر أول مرة رأيت النجوم وكانت النجوم تعرفني منذ زمنٍ طويل. كنت في ذلك المساء على ركبتي والدتي ورغم ذلك سرى البرد فى جسدي واستولى عليَّ الخوف ـ فانتبهتُ لذاتي الصغيرة انتباهاً غير عاديّ. ورفعت والدتي أصبعها مشيرة الى النجوم اللامعة. فدهشتُ وفكرتُ «بأي لباقة صنعت امي كل هذا!» وعادت الحرارة الى جسدي واظنني استسلمت للنوم

واذكر كيف اضطجعت مرةً على العشب الأخضر وكل ما حولي يموجُ ويهتزُّ ويطنُّ ويهمهم. فاقتربتْ مني جماعةُ مخلوقات صغيرة مجنّحة ذات أقدام متعددة وحلّت على جبهتي قائلة «نهارك سعيد». فشعرت بألم في أجفاني وصرخت منادياً أمي. فجاءت وقالت «يا بنيّ المسكين، ها قد لسعتك البعوض!» ولم أتمكن من فتح عينيّ لأرى زرقة السماء. وكانت أمي تحمل طاقة بنفسج نضير فأحسست بالاريج المسكّن ذي الزرقة القاتمة يخترق دماغي. ومنذ ذلك اليوم ما رأيت باكورة البنفسج الا انتعشت تلك الذكرى

في حافظتي فاغمض عيني لعلّ سماء ذالك العمر تخيّم عليّ مرةً أخرى

شفيتُ فانبسط أمامي عالم لم أعهدهُ يفوقُ منهُ الجمال جمال الكواكب ويفضلُ منهُ العطر عطر البنفسج . وكان صباح عيد الفصح . فايقظتني والدتي باكراً فوقفت انظر الى الكنيسة القديمة القائمة ازاء النافذة . لم تكن جميلة كنيسة طفولتي، انما كانت شاهقة جدرانها ذات منظر مهيب ، باذخة قبتها يعلوها صليب مذهّب، وتبدو أقدم جميع المنازل المجاورة

واطالما تمنيتُ تعرّف من يسكنها فنظرتُ من شبك الباب الحديدي ، وأطلتُ النظر مرةً وكان الداخل خاوياً خالياً رطباً وليس ثمت نفس واحدة . فصرتُ أفزع كلما مررتُ بها فاعدو طلباً للهرب

ولكن في ذلك الصباح ، صباح عيد الفصح ، أمطرتنا السماء في الضحى رذاذاً ثم بزغت الشمس في أبهى حلة من الانوار فبهجت جدران الكنيسة القديمة وتألق سطحها المصفح الاشهب ، ولمعت نوافذها الكبيرة ، وسطعت القبة بسناء صليبها الذهبي سطوعاً مدهشا تناول كل شيء منها وحواليها .

وبدا النور السائل من النوافذ الكبيرة حياً متموجاً وابهى من ان يمكن التحديق فيه . فاغمضت عينيّ . الا ان النور العجيب ما زال يفيض على روحي جاعلاً جميع الاشياء لامعة عطرة ترن وتنشد

خلت حياة جديدة تنبض فيّ كأن شخصي الاول تبدل بشخص آخر ؛ واذ سألت عن الاصوات الفخمة المتصاعدة من اعماق الكنيسة قالت والدتي ان هذا نشيد الفصح . لم يتسنّ لي الى اليوم معرفة ذلك النشيد الذي هبطت انغامه على روحي ، ولا ريب انه من تلك المزامير الرائعة التي تسربت الى روح لوثر الصارمة . ولم أعد اسمعه مرة اخرى . اما الآن فعندما أصغي الى موسيقى بيتهوفن أو مزامير مارسلو ، أو اجواق هيندل — واحياناً عند ما اسمع الاغاني الساذجة في جبال اسكوتلندا والتيرول — ، اشعر بان نوافذ كنيستي القديمة تسطع بنور باهر ، وان عالماً جديداً ينفتح أمامي أجمل من عالم الكواكب واعذب من عرف البنفسج

هذا ما علق بذهني من تذكارات طفولتي يتخللها وجه امي الحنونة وعينا ابي العميقتان ، وحدائق واشجار وأعشاب

مخملية الخضرة ، ودالية تحمل العناقيد الناضجة ، وكتاب جليل حافل بالصور الملونة — التوراة . هذا كل ما اميزه على الصفحات الاولى من ذاكرتي الذابلة

لكن ما يعقبه واضح جليّ . ارى ملامح الوجوه التي اعتدت مشاهدتها وأنادي اصحاب هذه الوجوه باسمائهم : ابي وامي، واخواتي واخوتي، والاصدقاء والمعارف والمعلمون وبعض الغرباء . . .

أواه ! يا لحلاوة تذكار تركه الغرباء في فؤادي! ويا لعمق موضع روحي نُقشت فيه اسماؤهم !

الذكرى الثانية

كان على مقربةٍ من بيتنا وازاء الكنيسة ذات الصليب المذهّب بناية شاهقة تعلوها قبب كثيرة . عظمت حتى صغرت حيالها بناية الكنيسة ذاتها . وكانت قببها شهباء قديمة كقبب الكنيسة إنما لم تظهر فوقها الصلبان المذهّبة بل قامت على الجوانح نسورٌ حجرية وخفقت رايةٌ زرقاء على القبة العليا المطلّة على المدخل ، وقد امتد امامه سلم يمنةً وآخر يسرة ووقف جندي يحرس كلاًّ منهما

نوافذ المنزل عديدة تجلّلها من الداخل الحرائر القرمزية تتدلى منها الطرر الذهبية . وأشجار الليمون المنتصبة في الساحة الفيحاء تغطي الجدران بوريقاتها النضة وتنشر على العشب أريج أزهارها

كثيراً ما كنتُ أرفع عينيّ الى هناك عند المساء اذ تطلق أشجار الليمون أعذب أنفاسها وترسل النوافذ أبهى أنوارها فارى خيالات تجيء وتروح ، وأسمع أنغام الموسيقى

مترددة من أعالي القصر . ثم تمرّ المركبات الى القصر فيترجل الرجال والنساء ويصعدون على الدرجات وعلى وجوههم سيماء الصلاح والنبل بينا نجوم الاوسمة تشع على صدور الرجال والورود والرياحين ترقص بين شعور النساء . فافكر في بساطتي « لماذا لا أذهب أنا كذلك ؟ »

أخذني والدي بيدي يوماً وقال « ها نحن ذاهبان الى القصر . فتأدبْ . واذا كلمتك الأميرة أجب باحتشامٍ وقبّل يدها » . وكنتُ في عامي السادس ففرحتُ فرح أهل هذا العمر . وكنتُ أسمع الثناء الكثير على أخلاق الامير والاميرة صاحبيّ القصر وما فطرا عليه من ميل الى الاحسان وعطفٍ على الفقراء ، فضلاً عن عدلٍ وانصاف بهما يمثلان الله تعالى على الارض في معاقبة الاشرار والمعتدين . فحسبتني أعرفهما ، وحسبتهما نظير الصورة التي وضعتها لهما مخيلتي . بل هما كانا من معارفي القدماء لا كلفة بيننا ولا تكلف كأنهما بعض ألاعيبي وجنودي الخشبية

صعدتُ في السلم وقلبي يدق بسرعة . وأخذ أبي يوصيني أن أقول « سموّكِ » في مخاطبة الاميرة . ففتحت

الابواب ورأيت أمامي امرأة طويلة القامة ذات عينين براقتين نافذتين ، تخال آتيـة توّاً اليّ تمد يدها لأضع فيها يدي . وللامحها هيئة الفها ذهني ونصف ابتسامة محجوبة تلعب حول ثغرها بلطف . فلم أتمكن من ضبط نفسي . وفي حين ظل ابي واقفاً قرب الباب ينحني (لا أدري لماذا) انحناءً عميقاً خففت أنا الى السيدة الجميلة وقلبي يقفز الى شفتيّ ، ثم طوقت عنقها بذراعي وقبلتها كما أقبل والدتي . فظهر الارتياح على وجهها وداعبت شعري ضاحكة . الا ان ابي مسك بيدي ودفعني بجفاء قائلاً اني صبي شرير واني لن أرافقه مرةً أخرى . فأخذتني الحيرة وصعد الدم الى وجنتيّ وشعرت بسهم يخترق فؤادي الصغير وان أبي يظلمني . نظرت الى الاميرة استمد دفاعاً فلم أرَ في محيّاها غير الرصانة واللطف . وأدرت بصري في القاعة ومن فيها من رجال ونساء لعلّي أجد من يشاركني في ألمي فاذا بهم جميعاً يضحكون . فهطلت الدموع من عينيّ وسرت نحو الباب وهبطت السلم مسرعاً تحت أشجار الليدون حتى وصلت المنزل والتقيت بامي ، فرميت بنفسي بين ذراعيها والشهيق يقطع صدري

•

فقالت « ماذا جرى لك يا بنيّ ؟ »

قلت آه لو تعلمين ! ذهبت الى الاميرة فوجدتها جميلة لطيفة مثلك يا اماه فلم أتمالك أن طوقت عنقها بذراعي وقبّلت وجنتيها »

فقالت « وكيف فعلت ! هؤلاء الناس أشراف أماثل وهم غرباء عنا »

قلت « ماذا يهمني كونهم غرباء ؟ أليس لي أن أحب كل من نظر اليّ بعينين معسوليتين باسمتين ؟ »

قالت « لك أن تحب من تشاء يابني . ولكن عليكَ ان تكتم حبك ولا تظهر منه شيئاً »

قلت « ان لم يكن حبُّ الغرباء جريمة فلماذا يحظَّر عليّ اظهاره ؟ »

فتنهدت امي وقالت « انك لمصيب يابنيّ. لكن عليك ان تطيع والدك . وعندما تكبر سناً وفهماً تعلم لماذا لا يجوز ان تطوق عنق كل سيدة جميلة ذات عينين جذابتين »

وكان ذلك اليوم كئيباً . عاد أبي الى البيت وكرراني اسأت التصرف . وفي المساء سارت بي امي الى سريري

فجثوت وصليت . غيراني لم انم الا بعد أرقٍ طويل متسائلاً
من هم الغرباء الذين لا تجوز محبتهم

وا لوعتاه عليك يا قاب الانسان ! ان اوراقك لتجف
في ربيع ايامك والريش يتساقط عن جناحيك قبل الاوان .
عند ما يبزغ فجر الحياة في افق النفس ينتشر فيه عبير
الحبّ . نحن نتعلم السير والوقوف والكلام والقراءة
لكننا لا نتعلم الحب ، لان الحب جوهر الروح وجميع قوى
الروح تناديه بأصواتها المختلفة . وقوة الحب أمّ أصل غرسته
الطبيعة في أعماق الكيان . فكما تجذب الاجرام السماوية
بعضها بعضاً بالجاذبية الابدية كذلك تجذب الأرواح المتآلفة
بعضها بعضاً وترتبط الواحدة بالاخرى برباط الحب الابدي .
هيهات للزهرة ان تعيش بلا شمس وللانسان ان يحيا حياةً
عظيمة بلا حبّ

أليس ان قلب الطفل يكاد ينسحق انسحاقاً اذ تهبُّ
عليه من الجفاء النسمات الباردة الاولى في هذا العالم الزئبقي ؟
ولكن ها انحب والديه يظلُّ لامعاً في ألحاظهم كأنوار سماوية
وأشعة الهية

•

حنين الطفل أطهر انواع الحب وأبعدها غوراً وأشملها طبيعةً لانه يحتضن العالم بأسره منسكباً على كل نظرة ودودة، ويهتزّ لسماع كل نغمة عذبة. هو بحر عميق زاخر لا قرار له، وهو ربيع كنوزٍ لا تُقدر وخيرات لا تحصى. وكل من اختبر الحب عرف انه لا يقاس ولا يكال ولا يوزن ولا زيادة فيه ولا نقصان، وان الذي يحبُّ صادقاً يحب بكلية قلبه وروحه وبمجموع قواه وافكاره

لكن واحسرتاه! ما أقل ما يبقى من هذا الحب بعد الوصول الى نصف رحلة الحياة! عندما يعلم الطفل ان في العالم «غرباء» ويفهم من هم أولئك الغرباء تنتهي أيام طفولته. فيختفي ينبوع الحب وتسحقه أقدام الأعوام والاختبار. ويوم يتلاشى لمعان العين الطاهرة فتحل محله خيالات التعب والريب ينظر الانسان الى اخيه نظرة الغريب الى الغريب ويتحاشى الدنو منه في الشارع المزدحم. يمرُّ غير مسلمٍ خوفاً ان لا تُرَدّ التحية فتتوجع روحه، لان الانسان ذاق مرارة الهجر من أصدقاء طالما بادلهم تحية الرؤوس وابتسام الشفاه ولمس الايدي. الريش البهي يتساقط عن جناحيّ النفس،

وتجف وريقات الزهرة منها وتنمزق ، ولا يبقى من منهل الحب سوى قطرات قلائل لارواء غليل التائه في صحراء الحياة . تلك القطرات نظلُّ ندعوها حباً . فأين هي من حبّ الطفل الفياض الجوّاد ؟

ليس ذاك سوى حبّ مزج بالشك والهموم ونار الانفعال المضطرم . حبٌّ يفني ذاته بذاته كقطرات المطر على الرمال الحارة . حبٌّ يطلب دواماً ولا يبذل يوماً . حبّ يسأل « أتريد أن تكون لي ؟ » ولا يقول « يجب ان اكون لك » . حب يستغرق نفسه ، ويذيب نفسه ، ويلاشي نفسه ، وهو معذب يائس . هذا هو الحب الذي تترنم بوصفه الشعراء ويتوق اليه الفتيان والفتيات . شعلة تلتهب ثم تنطفي ولا تدفيء ، وتذهب تاركة بعدها الدخان والرماد . نحن نزعم يوماً ان هذه الاسهم النارية انما هي آية الحب الدائم ، ولكن كلما استعرت تلك النار وعظم لهيبها الموقوت قرب خبوها وحلكت ظلمة الليل الذي يتبعها

وساعة يسودُّ الافق ويدلهمُّ حول الواحد منا فيرى نفسه وحيداً شريداً بين السائرين يمنةً ويسرةً دون أن

يعيروه التفاتاً إذن تنهض عاطفةٌ منسية وتمشي في صدره ذهاباً واياباً ، ولا يدري أهي عاطفة حب او عاطفة صداقة، ويودُّ ان يصرخ لكلٍّ من أولئك الغرباء « ألا تعرفني ؟ »

اذ ذاك يشعر بأن الغريب ادنى الى الغريب من الاخ الى أخيه ومن الاب الى ابنه ومن الصديق الى صديقه ، ويدوي في طبقات ذاكرته صوت مجهول قائلاً ان هؤلاء « الغرباء » أقرب أصدقائنا وأعزهم لدينا وأحبهم عندنا

اذاً لماذا نمرُّ بهم صامتين ؟ ذاك سرلا يُدرَك وما علينا سوى الامتثال . عندما يمرّ قطاران وأنت في أحدهما وفي الآخر وجه يوّد ان يبسم لكَ ، حاول مدّ يدك لمصافحة الصديق المبتعد عنك قهراً . حاول ذلك وجرّبه لعلّك تعلم لماذا يمرُّ الانسان بالانسان صامتاً

قال فيلسوف قديم : رأيت بقايا سفينة أغرقتها العاصفة عائمة على صفحة البحر . يتلامس بعضها ويتلاقى الى حين . ثم تهب الريح فتفرقها شرقاً وغرباً دون أملٍ في اللقاء . وذاك مصير بني الانسان في بحر الحياة ، ولكن ليس بينهم من شهد غرق السفينة

•

الذكرى الثالثة

غيوم الحزن لا تبقى طويلاً في جو حياة الطفل بل تتبدد بتدفقها من عينيه دموعاً . لذلك عدت بعد أيام الى القصر فاعطتني الاميرة يدها واتيح لي تقبيلها . وجاءتني باولادها الامراء والاميرات فانشأنا نتقاسم الالعاب ونتشارك في الملاهي شأن الذين يرجع عهد تعارفهم الى سنوات خلت. تلك أيام هنيئة لاني بعد ساعات المدرسة — وكنت بدأت أذهب الى المدرسة — كان لي ان أتوجه الى القصر فاجتمع برفاقي وبين أيدينا ما يشتهي قلب الطفل من لعيبات ودمى كثيرما أرتنيها والدتي وراء زجاج الحوانيت الكبيرة ، قائلة انها باهظة الثمن قد تكفي الواحدة منها لاعالة العيلة الفقيرة اسبوعاً كاملاً . ومثلها كتب الصور الجميلة التي ابصرت ابي يقلبها عند اصحاب المكاتب ويقول انها لا تشرى لغير الاولاد الصالحين . ها هي لي الآن في القصر أقرأها وامعن في صفحاتها ساعات طويلات ، لان كل ما يخص الامراء

الصغار يخصني — أو بالحري هذا ما أزعمه . اذ لا تقصر حريتي على استعمال ذلك المتاع الصبياني عند اصحابه بل انا مخيّر في اخذ ما أريد منه الى البيت وفي التصرف به واهدائه الى اولاد آخرين . وزبدة القول اني كنت اشتراكياً باوسع معاني الكلمة

وكانت الاميرة تلبس يوماً افعى ذهبية التفت حول زندها التفاف الحياة والاحساس . فدفعت بها الينا لنلهو . وعند الانصراف لويت الافعى حول ساعدي لارحب امي في الظلام . فلقيت في طريقي امرأة توسلت اليّ أن اريها الافعى ففعلتُ . فتنهدت وقالت انها لو ملكتها لخلص بثمنها زوجها من غيابات السجن . فلم أتردد لحظة في مساعدتها ، ومضيت أعدو تاركاً المرأة والسوار الذهبي بين يديها

وحدث في الغد جلبة وضوضاء اذ جيء بالمرأة الى القصر تبكي وتنتحب وقد اتهمت بان اغتصبتني الافعى . فاستشطت غضباً وصرحت بتحمس وحدة اني وهبتها السوار ولا أروم استرداده . لا ادري ماذا جرى بعدئذ . على اني

صرت . منذ ذلك اليوم أعرض على الاميرة كل ما أحمله معي الى البيت

مرّ زمن قبل ان تتسع افكاري فادرك معنى خاصتي وخاصتك . وطال اختلاط المعنيين في ذهني كما طال عجزي دون التمييز بين اللونين الاحمر والازرق . وآخر مرة ضحك مني أصحابي لمثل ذلك كانت يوم أعطتني والدتي نقوداً لابتاع تفاحاً . أعطتني عشرين بارة وكان ثمن التفاح نصف هذه القيمة . فقالت البائعة بصوت خالته حزيناً انها لم تبع شيئاً منذ الصباح وليس لديها من النقود ما ترده اليّ ، وتمنت ان اشتري تفاحاً بعشرين بارة. فتذكرتُ ان في جيبي قطعة نقود اخرى من ذوات العشر بارات ، وسررت ان احلّ المشكل بنقدها تلك القطعة قائلا « الآن تستطيعين أن تردي العشر بارات الباقية » . فلم تفهمني المرأة المسكينة بل أعادت اليّ قطعة العشرين بارة واستبقت لنفسها قطعة العشر بارات

كنت أذهب كل يوم اشارك الامراء في العابهم واتعلم معهم الفرنساوية. ومنذ ذلك الحين أرى صورة ترتفع من أعماق ذاكرتي ، هي صورة ابنة الامير الكبرى الكونتس ماري التي

توفيت والدتها أثر وضعها فتزوج الامير بعدئذ بالاميرة الحالية.

تتصاعد تلك الصورة في شفق ذا كرني بتمهل وابهام. فهي في البدء خيال سابح في الهواء يتشكل ويتكيف قليلا قليلا مقتربا مني، حتى يقف اخيرًا أمام نفسي ساطعاً كالبدر يشق حجاب الغيوم بعد زوبعة شديدة ويبرز فينير وجه الليل. كانت الفتاة أبداً مريضة تتألم صامتة. ولم أرها حياتي الا ملقاة على سرير نقال يحمله الى غرفتنا رجلان، ويحملانه منها اذا هي تعبت وأشارت. هناك كانت ترقد بين الانسجة البيضاء شابكة يديها على صدرها، ووجهها شاحب وانما مليح لطيف وعيناها عميقتان لا قرار لغورهما. فاقف حيالها مشتت الفكر، واحدق في عينيها متسائلاً ما اذا كانت هي الاخرى من «الغرباء». فتضع يدها على رأسي فتعتريني هزة والبث جامداً صامتاً بلا حركة ولا كلام، وكل قواي تطل من حدقتي على تينك العينين العميقتين اللتين لا قرار لهما

كانت تكلمنا نادراً غير ان نظرها يرقب كافة ألعابنا. ولم تكن تتذمر مهما افرطنا في رفع الصوت واكثار الجلبة بل تنقل يديها الى جبهتها العاجية وتغمض عينيها كمن يستسلم

للنوم . وتشعر بتحسن صحتها في أيام اخرى فتستوي فوق مضجعها ونرى على وجنتيها نضرة الفجر الباكر . فتحدثنا الاحاديث المسلية وتقص علينا الحكايات المدهشة . لست ادري كم كانت سنها ، على انها كانت باعتلالها الطويل وضعفها شبيهة بالاطفال يداريها الجميع ، ويذكرونها برفق واحترام وينعتونها «بالملاك» ولم اسمع عنها يوماً سوى الكلمة الطيبة. أما أنا فكنت اقف حيالها خاشعاً ، وعند ما أراها صامتة بائسة وافكر في انها لن تعرف يوماً لذة النهوض والسير من مكان الى مكان بمجرد دافع الارادة ، وانها ليس لديها من عمل تؤديه ولا من مسرة تتمتع بها بل ان سريرها هذا في الحياة انما هو رمز نعش يضمها في الممات — اذ ذاك اساءل نفسي لماذا جاءت هذا العالم وهي أهل لان تذوق راحة رضية في حضن الله ، أو ان تُحمل على اجنحة الملائكة البيضاء على ما نراه ممثلاً في الصور المقدسة . ثم اشعر بوجوب مقاسمتها آلامها لئلا تقاسي وحدها جاهلة ان قربها قلباً يتألم لها ويحتمل معها . ولكن كيف أبوح لها بما يجول في خاطري وأنا غافل عن وجوده ؟ كل ما كنت اعلم انه لا يجوز لي ان

القي بنفسي على عنقها لئلا اسبب لها كدرًا وغمًا . فاكتفي بالابتهال الى الله من أعماق قلبي ان يريحها من سقامها

أُدخلت علينا في يوم حار من أيام الربيع وهي شاحبة كل الشحوب ، أما عيناها فكانتا أشد لمعانًا وأبعد غورًا . فجلست على مضجعها ونادت بنا وقالت «اليوم تذكار مولدي . حبذا العيشة معكم طويلاً ولكن قد يدعوني الله اليه في القريب العاجل . ولما كنت راغبة في ان لا تنسوني تمامًا بعد رحيلي جئت كلاً منكم بخاتم يلبسه الآن في السبابة ويظل ينقله الى الاصبع المحاذي كلما مرت الاعوام حتى يستقر في الخنصر وهناك يبقى مدى الحياة »

وعمدت الى خواتم خمسة في أصابعها فنزعتها الواحد بعد الاخر وعلى وجهها امارات حزن عميق يمازجه حبٌّ وابن . فأغمضتُ عينيَّ كيلا ابكي . فأعطت أخيها الاكبر الخاتم ألاول وقبّلتهُ ، ودفعت الخاتمين الثاني والثالث الى اختيها الاميرتين ، وكان الخاتم الرابع نصيب الامير الاصغر ، وقبّلتهم جميعًا . وكنتُ أقف قربها محدّقًا في يدها البيضاء وفي الخاتم الوحيد الباقي في أصبعها . ثم استلقت على

سريرها منهوكة القوى فتبع حركتها نظري والتقى بنظرها ففهمتْ بلا ريب ما يدور في خلدي وسمعت ما يهمس به قلبي لان الحاظ الاطفال شديدة التعبير بليغة المعنى . حزنتُ لاعراضها ، ولو حاولتْ مراضاتي الآن ما رضيت أن انال الخاتم الأخير لأن التخلّف انما يدلُّ على اني غريب لا تخصّني بإعزاز ولا تحبني محبتها لاخوتها واخواتها . وصرت متوجعاً كمن فتح أحد عروقه أو قطع بعض أعصابه ، ولم أعد ادري انّى اوجه نظري لاخفي كربتي

فجلست من جديد ولمست جبهتي مرسلة في عيني نظرة استقصاء واستقراء أشعرتني بان ما من سر فيَّ الا اكتنهته الفتاة ومامن فكر الا قرأتهُ . وسحبت الخاتم الاخير من يدها متمهلة وقالت « وددت أن يصحبني هذا الخاتم يوم أُفارقكم ولكن البسه أنت فذلك خير . وفكر فيَّ عند ما أصير بعيدة عنكم . اقرأ الكلمات المنقوشة عليهِ « كما يشاء الله » . أما قلبك هذا ففعم حرارة ورقة ، ألا فلتروّضه الحياة وتنمهِ دون أن تقسيه ! » ثم قبلتني كما قبلت اخوتها واعطتني الخاتم

ما أصعب الوصف وما أعصاه ! يومذاك كنت اكاد اكون صبياً فكيف يتفلّت قلبي من سحر ذلك الملك المتألم ولطفه ؟ كنت أحبها كما يحب الصبي — والصبيان يحبون بحرارةٍ وصدق وطهارة قلّ منهم من يحبّ بها في الشبيبة والرجولة — على اني ذكرتُ انها من « الغرباء » الذين حرّمت عليّ المجاهرة بحبهم . إنما شعرتُ بتقارب روحينا وبتلامسهما بأرق ما تتلامس به أرواح البشر . زالت المرارة من قلبي ولم اعد أشعر بأني وحيد في العالم ، ولم اعد أشعر بأني غريب عنها تفصل بيننا هوة أو مرتبة . كنتُ معها ، كنتُ قربها ، وكانت روحي تلمس روحها ، فحسبي

ثم رأيتُ ان استبقاء الخاتم الذي ودّت اخذه الى القبر ، رأيت ان أستبقاءه معي حرماناً لها ، وتعالت في نفسي عاطفة طفت على كل عاطفة سواها فقلتُ مضطرباً « احتفظي بالخاتم ان شئت ان يكون نصيبي . لأن ما لك هو لي » فأطالت النظر في وجهي دهشةً متأملة ، ثم تناولت الخاتم ووضعته في أصبعها وقبّلتْ جبهتي مرةً أخرى وقالت بصوتها العذب الرقيق « أنت لا تدري ماذا تقول ، أيها الفتى ، فحاول ان تفهم نفسك لتسعد وتُسعد الآخرين »

الذكرى الرابعة

نجتاز من العمر أعواماً يماثل تتابعها ممراً طويلاً قامت على جانبيه اشجار الحور تحجب عنا استدارة الافق فنظل جاهلين أي الانحاء نجوب، ولا نحفظ منها سوى كثيب الذكر اننا قطعنا من الايام مراحل وتقدمنا في السن. ونلهو في حداثتنا بمراقبة المد المنبسط من نهر الحياة فيلوح لنا المشهد واحداً وان تغيرت منه المناظر وتجددت على الشطين. فاذا ما بلغنا شلالات الحياة — شلالات الجهاد والعناء والالم — كان عملها في نفوسنا شديد الاثر، وكلما ابتعدنا عنها زاد تعالي صخبها وهديرها وضجيجها. حتى اذا أخذنا في الدنو من أوقيانس الابدية اجتلى في ذهننا معناها، ووضحت لنا اهميتها، فشعرنا بان القوة التي ماقتئت تمدنا بالنشاط والفطنة والحكمة وما زالت تسوقنا الى الامام نحو غاية سامية انما تلك الشلالات أصلها ومصدرها، ومنها منهلها الذي لا ينضب

انقضت مدة دراستي ومضت معها أوقات السرور

والخلوّ وذوى من احلامي الجميلة كثير ، على انه بقي لي ايماني بالله وحسن ثقتي بالبشر . رأيت الحياة شديدة الاختلاف عما صورته مخيلتي ، ولكن الشؤون بدت لادراكي كبيرة مهمة تزينها المعاني الرفيعة السامية . وما أشكل منها وجلب غماً وألماً صار في تقديري أقوى شاهد على ان يد الله تدير حركات الكون فليس لعقولنا المحدودة ان تحصر تلك الحكمة المتناهية . « لا يقع شيء الا باذن الله وسماحه » غدا هذا المبدأ الفلسفي ، وضع راحتي وتعزيتي

عدت في عطلة الصيف الى بلدتي . فرح العودة وفرح اللقاء — من ذا منا يشرح اسبابه ؟ من ذا الذي يتفهم لذة تذوقها في أن نرى مرة اخرى ما رأيناه من قبل ، وأن نجد من جديد ما سبق وعرفناه قدماً ؟ يكاد يكون التذكار سرّ كل تمتع وكل مسرة . قد يكون ما نراه ونسمعه ونذوقه لاول مرة جميلاً مرضياً لذيذاً على انه يدهشنا بجدته وغرابته فلا يتم الهناء به لان مجهود السرور يجيء غالباً أقوى من السرور نفسه . ولكن اذا سمع المرء بعد مرور أعوام نغمة قديمة كان يزعم انه نسي كل نبرة من نبراتها فعرفتها روحه وعانقتها كانها

صديق عزيز؛ أو وقف أمام صورة العذراء ناظراً في عيني طفل تحمله فتنبهت فيه عواطف اعتادها عند هذا المشهد في صغره؛ أو استنشق زهرة، او ذاق طعاماً لم يذكره منذ زمن الحداثة — شعر بلذة لا يدري لعمقها أهي آتيـة من السرور الحاضر وحده أم هي جمعت بين أطايب الساعة المارة وتذكارات عهد مضى

كـذلك يعود الطالب منا إلى وطنه بعد غياب أعوام فتخوض نفسه بحر خواطر تحمله منهُ الموجات المترنحة نحو شواطىء الايام القصيـة ، واذ يسمع ساعة البرج تدق يضطرب خوفاً من التأخر عن ميعاد الدرس ثم يعود من رعبه جذلاً بانقضاء أيام الدراسة . يرى كلباً يعبر الشارع هو الـكلب الذي طالما لاعبه في الماضي، وها هو الآن قد كبر وشاخ حتى قام الفراغ مقام أنيابه . وهاك بائع السامع المتجول الذي طالما جربتنا تفاحاته وما زالت في حكمنا، رغم غبارٍ يلتصق بها ويغلفها، أشهى صنوف التفاح في العالم . وهناك هدم منزل قديم وشيد غيره مكانه . ذاك كان منزل معلم الموسيقى . ما كان أبهج الوقوف تحت نوافذه في ليالي

الصيف والاصغاء الى ما يتكره ارتجالاً للتسلية بعد ساعات العمل الطويلة ، فتنطلق الالحان كانها بخار تجمّع في نفسه خلال النهار فانشأ يعتقه ليلقي عنه حملاً ثقيلاً . وهنا في هذا الزقاق الضيق الذي كنت أخاله أوسع قليلاً — هنا اجتمعت ليلة بابنة الجيران الجميلة . لم اكن فيما مضى لأجرأ على محادثتها والنظر اليها . على اننا نحن الصبيان كنا نتناقل اخبارها في المدرسة ونسميها « الفتاة الحسناء » . فان رأيتها آتيــة في الشارع عن بعد اغتبطت لهذه المصادفة دون ان اطاب الدنو منها . وكان انها مرة في هذا الزقاق المؤدي الى المقبرة اتكأت على ذراعي وسألتني ان أسير بها الى البيت . مشينا ولم ننبس بكلمة طول الطريق . كنت صامتاً وظلت هي ساكتة ، ولكن سروري كان من الشدة بحيث اني الآن بعد مرور اعوام ، ان ذكرت تلك البرهة تمنيت انقلاب الزمان ورجوع ما لا يرجع ليتسنى لي السير مرة اخرى صامتاً سعيداً تستند على ساعدي « الفتاة الحسناء »

وهكذا تتوارد خاطرة اثر خاطرة حتى تعجّ موجات التذكار فوق رؤوسنا ، ونرسل زفرة تلفتنا الى ان الهجس

أقلق انتظام التنفس منا . فيختفي عالم الاحلام بغتة كما تتلاشى الاشباح عند صياح الديك في الضحى

ولما مررت أمام القصر القديم المحاط باشجار الليمون ورأيت الحراس على خيلهم عند الدرجات العاليات توافدت التذكارات متلازبة في خاطري واكتأبت لدوران الايام . لم أدخل هذا القصر منذ أعوام عديدة . لقد توفيت الاميرة ، واعتزل الامير خدمة الحكومة وسكن منزلاً منفرداً في ايطاليا ، وصار نجله الاكبر الذي نشأت واياه نائباً عنه . يقيم في هذا القصر تحف به بطانة من شبان الاشراف والقواد يتمتع بحديثهم ويهنأ بعشرتهم ، فكيف لا يحسب اصدقاء طفولته غرباء عنه ؟ ومما رغبني في الابتعاد اني ككل شاب ألماني عرف احتياج الشعب الالماني من جهة وخطأ الحكومة الالمانية من جهة اخرى ، كنت انضممت الى حزب الاحرار واعتنقت نظرياته المغايرة لنظريات بلاط الملوك كل المغايرة

نعم ، منذ أعوام لم أصعد على ذلك الدرج . ورغم ذلك ألفظ كل يوم اسماً قطنت صاحبته في هذا القصر ومثلت

صورتها في ذهني لا تبتعد عني . اعتدت فراقها الجسدي لانها نمت خيالاً جميلاً وثقتُ من انّ لا أصل له في الواقع . صارت ملكي الحارسي وذاتي الاخرى ، أحادثها ساعة أحادث نفسي ، وأستشيرها وأعمل بنصيحتها . لست أدري كيف تجسمت فيّ الى هذا الحد على قلة معرفتي بها . ولكن كما ان النظر يبدع من السحب أشكالاً كذلك حفظتْ ذكرى طفولتي رؤياها اللطيفة وكوّنت من خطوط الحقيقة الضعيفة الواهية صورةً كاملةً بارزةً . أصبح تعاقب افكاري محاورة بيني وبينها ؛ وما هو حسن فيّ ، وكل ما اتوق اليه ، واسعى في سبيله ، واومن بهِ — ، كل ذاتي المثلى كانت تخصها ، كانت مهداةً اليها كما انها آتية من روحها ، من روح ملكي الحارس الامين

أقمت في بيتي العتيق اياماً فجاءني في ذات صباح رسالة مكتوبة بالانجليزية من الكونتس ماري ، وهذا نصها :

« صديقي العزيز

« بلغني انك ستقيم هنا زمناً . نحن لم نلتق منذ أعوامٍ طويلة . فان ارضاك انْ نلتقي مرة أخرى فاني اسرُّ كل

السرور بمشاهدة صديق قديم . تجدني وحدي بعد ظهر اليوم في الكوخ السويسري

« لك باخلاص

ماري »

فجاوبت فوراً بالانجليزية اني سأزورها في الموعد المضروب . ولم يكن الكوخ السويسري سوى جناح من القصر ينفتح على الحديقة ويتيسر الوصول اليه دون المرور في ساحة القصر الكبرى . ولما ازفت الساعة الخامسة اجتزت الحديقة متغلباً على انفعالي ، متهيئاً لمقابلة رسمية ، مؤكداً « للملكي الحارس » في داخلي ان لا شأن لي مع هذه السيدة . ولكن ما معنى قلقي واضطرابي ، ولماذا لا يوحي اليّ « الملكي الحارس » ما اطمئن به وأرتاح اليه ؟ أخيراً تشجعت هامساً لنفسي بكلمات سخرية بالحياة ، وطرقت باباً كان نصف مفتوح

وجدت في الغرفة سيدة لا أعرفها خاطبتني بالانجليزية وقالت ان الكونتس آتية في الحال . ثم خرجت وتركتني وحيداً ولديّ الوقت الكافي لالقي نظرة على ما يحيط بي

كانت جدران الغرفة من خشب السنديان يدور حولها نقش برزت فيه وريقات اللبلاب وتصاعدت مرشة في السقف. كذلك كانت الطاولات والكراسي وأرض الغرفة من خشب السنديان وقد تحاذى فيها الحفر والنقش. وتوزع هنا وهناك كثير من أمتعةٍ ألفتُها في غرفة ألعابنا القديمة وقد أضيف اليها أمتعة جديدة، لا سيما الصور والرسوم. وكانت هي الصور بعينها التي اخترتها لتزيين غرفتي في الجامعة: ففوق البيانو صور بتهوفن وهيندل ومندلسهن؛ وفي احدى الزوايا زهرة ميلو وهو في تقديري أتم وأبدع تمثالٍ أبقته لنا المدنية القديمة. وعلى الطاولات كتب دانتي وشكسبير، ومجموعة مواعظ تولر، وكتاب «اللاهوت الالماني» وأشعار روكرت وتنسن وبورنز، وكتاب كارلايل «الماضي والحاضر»، وهي الكتب نفسها التي كنت أقلّبها قبل ان اجيء الى هذا المكان. فاجتُذبت الى دائرة التأمل، بيد اني حاولت التملص منها ووقفت امام صورة الاميرة المتوفاة. عندئذٍ فتح الباب ودخل الرجلان اللذان عهدتهما في حداثتي يحملان الكونتس على سريرها

يا لعذوبة تلك الرؤيا ! كانت صامتة لا تتحرك وبقي وجهها هادئاً كصفحة البحيرة حتى غادر الرجلان الغرفة . اذ ذاك حوّلت نحوي عينيها ـ تينك العينين القديمتين اللتين لا يدرك غورهما ـ وتألّق وجهها فانقلبت كلُّ هيئتها ابتساماً . ثم قالت « كنا صديقين ولا اظننا تغيّرنا في صداقتنا . لذلك لا يمكنني ان اقول « أنتم » . وحيث ان العادة لا تسمح بأن أقول « أنت » بالألمانية فلنتخاطب بالانجليزية [١] . أليس كذلك ؟ »

لم اتأهب لمقابلةٍ كهذه . رأيت أن لا تمثيل هنا ، ولا مجاملة ، ولا رياء . هنا روح تتوق الى روح اخرى . هذا ترحيب صديق عرف عينيّ صديقه وراء الوجه العارية ورغم التنكّر الاتفاقيّ . فأخذتُ يدها التي مدتها اليّ وقلت « من حادث الملائكة لا يقول « أنتم »

---

(١) الالمان كالافرنسيين لا يستعملون ضمير المخاطب المفرد « أنتَ » الا بين افراد العائلة وبين الاصدقاء الاحمّاء . أما الانجليز فيخاطبون الجميع حتى الاقربين بالجمع . ولا يستعمل عندهم المخاطب المفرد « أنت » الا في الصلاة والشعر وما نحوه من مناحي البلاغة .
(المعربة)

ولـكن ما أعظمها قوة سُبكت في قوالب الحيـاة واصطلاحاتها ! وكم يتعذر التـكلم بلغة القلب حتى مع أشبه الارواح بأرواحنا ! تعذّر ذلك علينا فاضطرب حديثنا وتضعضعت أفكارنا وشعرنا بارتباك مزعج حاولتُ التخلص منه بما حضرني من الـكلام فقلت :

« لقد اعتاد الناس عيشة الاقفاص منذ الحداثة فاذا ما وجدوا نفوسهم فجأةً في الهواء الطلق لا يجرأون على تحريك أجنحتهم ، ويتخوفون الاصطدام بالصخور اذا هم حلّقوا في الفضاء الوسيع ! »

فقالت « هو ذلك ، وهو عين الصواب وليس نقيضه بالممكن . لا ريب اننا نودُّ أحياناً ان نـكون كالاطيار أحراراً نتنقّل على أشجار الغابات ونلتقي فوق الاغصان ونغرّد سوياً ثم نفترق دون ان يعرف أحدنا الآخر . ولـكن اذكر يا صديقي ان بين الاطيار غرباناً يؤثر تجنّبها . ولعلّ الحياة كالشعر : فـكما يحسن الشاعر سبك المعاني الجميلة والحقائق الخالدة في أوزان معيّنة كذلك على الناس صيانة حريتهم الفكرية والوجدانية رغم قيود المجتمع ودون

الايداء بها أو التطاول عليها »

فأجبت مستشهداً بقول الشاعر بلاتن « أي شيء أثبت نفسه خالداً في كل مكان ؟ ذاك هو الفكر الحرّ رغم قيود الالفاظ [١] »

فابتسمت ابتسامة رقيقة وقالت « نعم - ولكن لي من ألمي ووحدتي ما يخول لي ما يُنكر على سواي . وكم اشفق على الفتيات والشبان الذين لا يربطون فيما بينهم برابطة الصداقة والائتلاف الا ويفكرون هم أو يفكر لهم ذووهم ، بدنو الحب أو ما يسمونه حباً . الفتيات يجهلن الجمال المختفي في نفوسهن وقد يكفي لاظهاره حديث جدي مع صديق نبيل . والشبان يتعشقون فضائل الفروسية ويمرنون نفوسهم على المحامد والمكارم اذا هم شعروا بمراقبة امرأة تحوم حول جهودهم ونتائجها سرية كانت أم علنية . ولكن للاسف ذلك

(١) "Denn was an allen Orten
Als ewig sich erweist ?
Das ist in gebundenen Worten
Ein ungebundenen Geist."
Platen

لا يكون . لأن الحب لا يلبث ان يقتحم الميدان . الحب أو ما يسمونه حباً : أي ضربات القلب المتسارعة المتباطئة ، وعواصف اليأس والرجاء ، والتلذذ بالوجه المحبوب والتصورات المرضية — وقد يرافق هذه غايات واطماع جمة . تهجم كلها متعاونة على اقلاق ذلك البحر الهادي العميق ، بحر الصداقة ، وهو صورة صادقة للحب الانساني الطاهر »

صمتتْ هنيهة فيها لاحت على وجهها امارات الالم ، ثم قالت « حسبي اليوم كلاماً فطبيبي لا يسمح لي بالاطالة . والآن أرغب في سماع تلك القطعة الموسيقية لمندلسهن — النغمة المزدوجة — وكان صديقي الصغير يعزفها جميلاً فيما مضى . أليس كذلك ؟ »

لم احر جواباً لانها عندما صمتت وطوت ذراعيها على صدرها كالعادة رأيت في خنصرها ذلك الخاتم الذي اعطتنيه يوماً ثم رددته اليها . وكان نلاطم افكاري يحول دون البيان . فجلستُ الى البيانو وعزفت ما شاءت . ولما فرغت النفت اليها وقلت « حبذا لو انيل الانسان قدرة الافصاح بالنغمات الموسيقية من غير الفاظ ؟ »

فقالت «ذلك واقع لايحتاج الى التمني . ولقد وعيت كل
ما تهمس به هذه الالحان . غير اني لا استطيع استماع غيرها
هذه المرة لان ضعفي يتزايد يوماً فيوماً . على الواحد منا ان
يقبل بالآخر كما هو على علاته ، ولناسكةٍ مسكينة عليلة
مثلي أن تتوقع بعض الحلم من صديق مثلك . سنجتمع مساء
غد في الساعة نفسها . أليس كذلك ؟ »

لمستُ يدها وهممت بتقبيلها . ولكنها اوقفت حركة
يدي وضغطت عليها قائلة « هذا خير . الى الملتقى ! »

الذكرى الخامسة

يتعذّر عليّ التعبير عن أفكاري وعواطفي بعد عودتي الى البيت . هناك « افكار بلا ألفاظ » [١] يعزفها الانسان لنفسه في الساعات الخطيرة . لم أشعر بفرح ولا بحزن بل بدهشةٍ فائقة . وصار «يمثّل الهواجس والتصوّرات المخترقة ضميري كتمثّل النيازك الهابطة من الجوّ على الارض ما أدركْت غايتها الاّ بعد الانطفاء والاستحالة الى حجارة سوداء . وكما تقول لانفسنا في الحلم أحياناً « انت تحلم » كذلك قلت لنفسي « انت يقظان . وهذه هي » . ثم حاولت استجماع خواطري ولمّ شعث فكري بقولي « انها لفتاة لطيفة ذكية الجنان وقادة الذكاء» . وأخذتني منها شفقة

---

(١) في هذه الاستعارة تلميح الى مجموعة قطع موسيقية لمندلسهن المذكور في الفصل السابق واسمها « أغان بلا كلمات » Lieder ohne Worte • قطع غاية في العذوبة الموسيقية الكئيبة الساهية • منها القطعة التي قال بطل الرواية في آخر « الذكرى » الماضية انه عزفها

(المعربة)

وطفقت أحصي ساعات هنيئة سأقضيها واياها في هذه العطلة . لكن لا ، لا . لم تكن هذه سوى سوانح عبرت لباب خاطري ، وذلك اللباب ان هذه الفتاة هي منتهى ما بحثت عنهُ ، وفكرت فيهِ ، ورجوتهُ وآمنت بهِ الى الآن . هذه نفس بشرية عذبة كصباح الربيع ، عطرة كشذا البنفسج ، لامعة كلواحظ الكواكب . لقد تبيَّنت منذ النظرة الاولى قيمتها المعنوية وكلُّ ما أُودعَتْ من بهاء وسناء ، ورحَّب كلٌّ منا برفيقه لان الروحين تعارفا . خيّل اليّ ان « ملكي الحارس » مضى وتلاشى ، وحاولت ان أناديه فلم تجبني نفسي الا بما دلني على أنْ في العالم مكاناً واحداً أجدهُ فيهِ

وبدأ لنا عيش رغيد ؛ اذ كنا نجتمع كل مساء فشمرنا بمتانة صداقتنا ورسوخها وأضحى ضمير الجمع « انتم » طفيلياً بيننا فعمدنا بالمخاطب المفرد « أنت » نستعمله كاننا لم نفترق منذ الطفولة أصلاً . لم تصف عاطفة الا تهادى خيالها في نفسي ولم ابسط فكرة الا أشارت مصادقة كمن يقول « هذا فكري ايضاً » . كنتُ سمعت اعظم اساتذة الموسيقى

في عصرنا يرتجل وشقيقته ألحاناً على البيانو فأذهلني ان يتآلف فكر شخصين اثنين ويتوحد شعورهما فيوضحان الهامهما الموسيقي في آنٍ واحدٍ على أتم انسجام لا تخونهما شاردة ولا تشذّ في ابداعهما واردة . أما الآن فقد اتسع فكري فأدركت . اتسع فكري فعلمت ان روحي لم تكن فارغةً مدقعةً قاحلة ، وانما توهمتها كذلك لاحتجاب الشمس عنها وهي كفيلة باخراج البراعم والازهار الى الوجود والحياة. ورغم ذلك كان الربيع حزيناً وخيّمت منه فوق نفسينا أوشحة رمادية لان شهر مايو وروتقه لم ينسنا ان الورود سريعة العطب وان كل مساء ينزع من زهرة اجتماعنا ورقة . سبقتني هي الى الشعور بذلك وذكرته يوماً دون ان تبدي أسفاً أو ألماً .فانقلبت احاديثنا جدية هادئة ينيلها كل مساء عمر رصانة وجلالاً

قمت أودعها مرةً فقالت « ظننت الموت قريباً عندما أعطيتك الخاتم ، ولم اتوقع ان أعيش هذه السنوات. ولكني عشتها وتمتعت بالجمال كثيراً . كذلك تألمت شديداً . انما المرء ينسى هذا في السعادة. والآن وقد قربت ساعة الفراق فكل

فكل دقيقة توازي كنوزاً . مساء الخير . لا تبطىء غداً »

دخلت عليها يوماً وعندها مصور ايطالي . كان حديثهما بالايطالية ، ومع ان الرجل كان اقرب الى العامل منه الى الفنّان كانت لهجتها لطيفة وديعة يخالطها شيء من الاحترام فتجلى لديّ عندئذ شرفها الحقيقي أي شرف النفس لا شرف المولد . وبعد ذهاب المصور قالت « أريد ان أريك صورة أصلها في قصر اللوفر في باريس . قرأت وصفها فشئت ان تنقل لي » ثم أرتني الصورة وانتظرت حكمي . وكانت تلك صورة كهل في الزي الالماني القديم ، تلوح على محياه سيماء التفكر والامتثال لقوة عليا وقد بدا في هيئته واوضاع جسمه معنى الحياة العميق فلم ارتب قط في انه عاش يوماً ولم تبدعه مخيلة مصور . كان اللون البني القاتم متغلباً في الصورة ، على ان الجزء الخلفي استحضر مشهداً طبعياً نيراً وظهرت في الافق أشعة الفجر الآتي . لم يذهلني من تلك الصورة شيء انما اوحت اليّ عاطفة هادئة أستطعت معها التحديق في الرسم طويلا . فقلت « لا صدق يفوق صدق الهيئة البشرية . وان

رافائيل نفسه ليعجز عن ابداع صورة صادقة كهذه ان لم يعش صاحبها يوماً »

أجابت « صدقت . اما الغرض من هذا الرسم فها كه : قرأت وصفه فعلمت ان اسم راسمه مجهول كما جهل اسم الاصل الذي نقل عنه ، لعله من فلاسفة القرون الوسطى . فرغبت فيه ليتم به معرض الصور في غرفتي . ولما كان مؤلف « اللاهوت الالماني » مجهولاً وليس لدينا منه صورة رأيتُ ان صورةً وضعت لشخص مجهول بريشة مصور مجهول يصح ان تنوب عن مؤلف مجهول . فان وافقتَ علقتها بين ألواحي ودعوتها « اللاهوت الالماني »

قلت « فكرة غاية في الحسن . ولكن ربما مثلت الصورة شخصاً أقوى من دكتور فرنكفورت واعبس وجهاً »

قالت « ربما كان ذلك . ولكني انا الفتاة المتألمة السائرة الى الموت استقيت من هذا الكتاب قوة وتعزية ، ولمؤلفه عليّ فضل كبير لانه أعلن لي جوهر المسيحية في بساطته العجيبة . ثمتني ازاءه حرة في ان اومن او ان اجحد لانه لم يرغمني على احد هذين ، وقبض عليّ بشدة تخيل اليّ اني ادركت

معنى الوحي للمرة الاولى. وأنت تعلم انه مما يحول دون ولوج باب المسيحية الحقة ان التعاليم تبسط أمامنا كوحي علينا ان نؤمن به قبل ان يهبط الوحي على نفوسنا. وطالما قلقت لذلك: لست اعني اني شككت في حقيقة الالوهية وفي الوهية عقيدتنا. غير اني لم اكن لأكتفي بايمان خلعه عليَّ الاخرون، وحسبت ان ما تعلمته وتقبلته طفلة على غير فهم واختيار لا يستطيع ان يكون خاصتي ولي. الايمان لا يعار واليقين لا يستعار ولا يجدي التمويه نفعاً. ولا بد من اقتناع شخصي نستند اليهِ ونتعزى به اذ لا احد يحيا ويموت عن اخيه»

قلت «لا ريب ان كثيراً من المنازعات العنيفة والمناقشات الحادة ترجع الى ان تعاليم المسيح عوضاً عن ان تكتسب قلوبنا شيئاً فشيئاً بلا إرغام كما تملكت قلوب الرسل والمسيحيين الاولين فاننا نجابهها منذ حداثتنا كنصوص كنيسة قوية لا تقبل تردداً ولا ترضى جدالاً وتضطرنا الى الامتثال لاوامرها امتثالاً مطلقاً تسميه ايماناً. فلا بد من تولد الارتياب عاجلاً أو آجلاً في كل نفس تميل الى التأمل وتجلي الحقيقة. وعندما نصل الى تلك الخطوة من السبيل

فيتيسّر لنا تحرير ايماننا المستعار المزعوم ، تنتصب في وجهنا أشباح الشك والالحاد والكفر وتوقف فينا نموّ الحياة الجديدة »

فقاطعتني قائلة « قرأت حديثاً في كتابٍ انجليزي ان الحقيقة تتجلّى بالوحي وليس الوحي ليتجلّى بالحقيقة . واني لأشعر بذلك تمام الشعور لدى قراءة « اللاهوت الالماني ». قرأته فشعرت بقوة حقيقته القاهرة وأُرغمت على الاستسلام. أُوحيتْ اليّ الحقيقة . بل أُوحيت انا الى نفسي؛ وفهمتُ للمرة الاولى معنى كلمة إيمان . أصبحت الحقيقة ملكي بعد ان أطالت التملص مني لان اقوال المعلّم المجهول اخترقت كياني كتشعّع الضياء وأنارت خفاياي جاعلةً حيرتي اقتناعاً ، وظنوني المبهمة ايضاحاتٍ جلية. فصمّمتُ على قراءة الاناجيل كما لو كانت هي الاخرى مكتوبة بقلم المعلّم المجهول ، وابعدتُ عني ما استطعت كونها أُوحيت من الروح القدس باعجوبة الى الرسل ، وانها صودق عليها من مجامعِ الاساقفة والاحبار فاحتضنتها الكنيسة باعتبار انها الآية الفريدة العليا للدين المنقذ الوحيد . عندئذٍ بدأتُ اكتنه مع معنى

الايمان المسيحي معنى الوحي المسيحي »

فقلت « من المدهشات ان اللاهوتيين لم يفلحوا بعد في حمل البشر على جحود كل عقيدة كائنةً ما كانت . ولكنهم فالحون يوماً ان لم يحتج المؤمنون بعزمٍ قائلين « لكم ان تبلغوا في شروحكم واحكامكم هذا الحد ولا تتجاوزوه » . كل دين يحتاج الى الدعاة ، ولكن لم يقم الى الآن دين واحد في العالم لم يزيفه الكهنة سواء أكانوا براهمةً أو لاما (١) او كتبة وفريسيين . اولئك يتخاصمون موردين شواهدهم وحججهم بلغةٍ لا يفهمها من ابناء ملّتهم عشر واحد من عشرة أعشار . وعوضاً عن ان يستوحوا الانجيل مرشدين الآخرين الى استيحائه تريهم يجادلون لاثبات صحة الانجيل وعصمته لا من حيث هو انجيل انما لانه دوّنه قومٌ ملهمون . وهل يكون ذلك سوى حيلة من حيل التردّد والقصور ؟ بأيِّ حجة يثبتون الهام اولئك الافراد الى تلك الدرجة العجيبة ان لم ينسبوا الى انفسهم الهاماً أعجب وأدهش ؟ لا شك انهم فرضوا هذا الاعتراض لذلك قصروا موهبة الالهام على

---

(١) « لاما » هو اسم كهنة البوذيين

أكثرية من آباء الكنيسة المتألفة منهم هيئة المجامع . غير ان هذا التحديد لا يأتي بالجواب المطلوب . اذ كيف تتأكد انه بين خمسين حبراً واسقفاً ٢٦ كانوا ملهمين و ٢٤لم يصلهم من الالهام شيء ؟ يجزم المتطرفون اليائسون أنه يكفي ان يلمس الملهم يد شخصٍ ما لينتقل اليه الوحي والعصمة من الغلط ، ويوقنون ان العصمة والوحي انما حفظا في رأس الكنيسة (أو في رؤوسها) الى ايامنا بهذه الوسيلة . ويعتقدون ان عصمة اولئك الغرباء الذين لا نعرف منهم شيئاً تقضي على كل اقتناع صميم فينا بالبطلان ، وعلى كل استسلام مخلص بالفساد ، وتنكر كل بحثٍ من ابحاثنا ان لم يتفق مع بياناتها وأحكامها . ورغم كل ذلك يبقى السؤال القديم في انتظار الجواب : كيف يدري فلانٌ ان فلاناً ملهم لو لم يكن لهُ مثل ذلك الالهام على الاقلّ ، هذا ان لم يحو الهاماً أوفى وأشمل ؟ ألا يتحتم علينا حياز الوحي في ارواحنا لنكتشف آثاره عند الآخرين ؟ »

أطرقتْ لمحةً ثم قالت « يصعب الجواب . وطالما فكرت في كيفية استجلاء معاني الحب والتثبّت من حقيقتها.

كيف ندري ان شخصاً يحبّ أو لا يحب ؟ ما وجدت اشارة واحدة من اشارات الحب الا ّ كانت عرضةً للتزوير والتقليد . فاهتديتُ أخيراً الى ان المحب وحده يميّز بين الصادق والكاذب من تلك العلامات ، وانه انما يثق من حبّ القلب الآخر لانه واثق من حبّ قلبهِ . ولما كانت موهبة الحب شبيهةً بموهبة الروح القدس (الوحي) كان المنهمون وحدهم ان هم سمعوا الرياح العاصفات حسبوها أصواتاً من السماء وان ابصروا زهرات القرنفل زعموها ألسنةً نارية . والآخرون يخافون ، أو يغضبون ، او يسخرون قائلين « كلام عتيق ! أما نحن فنفوسنا ملأى بخمرةٍ جديدة » . بيد اني اعود الى ما أسلفت وهو ان كتاب « اللاهوت الالماني » هداني الى ايمانٍ استخرجتهُ من حاجات نفسي فوجدتُ قوتي العظمى في ما يراه غيري خطأً وعيباً ، وهو ان الاستاذ لا يبسط رأيهُ كقانونٍ منظّم بل ينثر أقواله كالزارع أملاً ان تقع بعض البذور على ارضٍ صالحةٍ فتتضاعف الغلة ألوفاً . كذلك استاذنا الالهي (المسيح) لم يحاول اثبات تعاليمه بالبرهان لان من حوى

الحقيقة الكلية استخفّ بالمظاهر واعرض عن جميع صنوف المباهاة والتعنت »

هنا ذكرتُ شواهد اسبينوزا وأدلّته في « اخلاقياته » وطالما فكرتُ في ان ذلك اللوذعي ما أكثر من شد خيوط شبكته الفلسفية الا لشعوره بضعف مذهبه ووهنه . فأجبت محدثتي « نعم. غير اني على ما أوحاه اليّ « اللاهوت الالماني» من الخواطر المفيدة لا يسعني الا الاقرار بأني لا أشاطركِ كل اعجابك بهذا الكتاب . ينقصه في نظري العاطفة الانسانية والطلاوة الشعرية ، لا سيما وانهُ خلا من حرارة القلب وجحد الواقع ولم يحترمه . روحانية القرن الرابع عشر لا تصلح عندي لان تكون أكثر من درسٍ نظريّ يتحتّم ان تعقبه العودة الى الحياة العملية بعزم وجرأةٍ ، الى تلك الحياة الواقعية التي عرفها لوثر وعالج منها المصاعب . لا غنى للانسان عن ادراك معنى العدم ، ولو مرةً في عمرهِ ، ليعلم انهُ ليس بشيءٍ وان أصولهُ بداية ونهاية ثابتةٌ عريقةٌ في أصلٍ يتعالى عن المحسوس ويجلّ عن الحصر . وهذا الاتجاه نحو الله ان لم يقدنا في الحياة الى كعبة آمالنا فهو يُبقي في نفوسنا

وجداً مقيماً الى مرجعنا ومستقرنا الابديّ . ولكن البون شاسع بين هذا النوع من العبادة وبين انكار الخليقة كما يفعل الروحانيون ، ولئن نشأ الانسان من اللاشيء أي من الله وبه وحدهُ ، فهو يعجز عن العودة الى اللاشيء بقوتهِ الذاتية . والتلاشي الروحي الذي يكثر « تاولر » الالماني من ذكرهِ لا يفضل « النرفانا » أو الفناء النوراني الذي يقول به البوذيون . تاولر يصرّح بأنه لو استطاع حباً بالله واظهاراً لخضوعه لهُ ان يفنى فناءً لما تردّد في ان يسجد امامه تعالى ويتلاشى في عمق أعماق الهاوية . الا ان الخالق لم يشأ فناء هذه الخليقة التي أوجدها . وقد قال القديس اغسطينوس انهُ « في اقتدار الاله ان يتجسد انساناً وليس في مقدور الانسان ان يستحيل الى الهٍ » . فلا بأس بالروحانية درساً يفيدُ ونظريةً تنيرُ ، بها ترهف النفس وتلطف وتزداد تألقاً . انما ينبغي ان لا تبخّر القوى والملكات على نحو ما تفعل النار بالماء الغالية في القدر . ومَن أدرك العدم في نفسه عليه رغم ذلك ان يؤمن بان ذاته الصغيرة ان هي الاّ انعكاس الذات الالهية الكبرى .

جاء في « اللاهوت الالماني » :

« ليس كل ما تدفق من منهل الـكمال بالجوهر الحق وليس له من جوهر في غير الـكمال . ما هو الا حدثٌ أو بهاء ، أو مظهر محسوس . ليس هو الجوهر ولا جوهر له الا في النار مبعث النور ، شأن شعاع الشمس وضوء الشمعة

«ولئن كان ما فاض من الـكيان الالهي كلهيب النار الا انه لا بد أن يكون حقيقة الهية في ذاته اذ قد يساءل المرء نفسه « وما هي النار بلا لهيب ، والشمس بلا نور ، والخالق بلا خليقة ؟ » وقيل أن الطامع في استجلاء هذه الغوامض وتفهم حكمة الله انما رغبته هذه كرغبة آدم والشيطان

« حسبنا علماً اننا نعكس الـكائن الالهي لنجتهد في صقل مواهبنا حتى يوم الـكمال . يستحيل اخفاء النور الالهي من نفوسنا تحت المكيال، فلندعه اذاً يلمع ويشرق ويضيء ما يحيط بنا ويبعث فيه الحرارة ، لنشعر بان دماءنا تطهرها نار الحياة . واذ يحلّ فينا معنًى قدسيّ رفيع يقوينا على اقتحام معارك العالم ، وتذكرنا أصغر الواجبات بعلاقتنا بالله، لا يلبث ان يصبح الأرضيّ في تقديرنا سماوياً ، والزمني ابدياً كأن حياتنا بأكملها حياةٌ فيه تعالى ، . ليس الله الراحة الدائمة بل هو الحياة الدائمة . وانجيليوس سليزيس مخطىء بزعمه أن الله لا ارادة له ، في قوله :

« نحن نصلي ايها الرب الهنا لتكن مشيئتك المقدسة ! ولـكن اسمع وعِ : أيها المبتهل ، لا ارادة الله لانه الراحة والسكون »

كانت الفتاة تصغي اليّ بهدوء وانتباه . فتأملتْ دقيقة ثم قالت « القوة والصحة ضروريتان لمن كان له مثل اعتقادك ، وفي الارض نفوس متعبة تعاني رهقاً شديداً وتصبو الى

الراحة والطمأنينة لان وحدتها تثقل عليها . تودّ ان يضمها السبات والسكينة الى احضانهما فلا يخسر العالم بذهابها ولا تأسف هي لفراقه . تلك النفوس تتعزّى في هذه الدنيا بالاتحاد بالله والاستغراق في ذاته الصمدانية ، وهي تفعل ذلك بداهةً اذ لا رباط يربطها بالعالم وليس لها من الاطماع ما يزعج ويقلق . فتتوق الى الراحة وتراها ـ كما يراها الشاعر الالماني ـ الخير الاسمى وترى الله راحةً والراحة فيه . ثم اني أجدك ظالماً في نقد « اللاهوت الالماني » لانه ازقال يبطلان الحياة الارضية فهو لا ينادي بحذفها . ويقول في مكانٍ آخر ان السكينة والراحة لا يلقاها الانسان قبل الموت ، الا انه بارتقائه الروحي يصير شبيهاً بيد الله ، لا يأتي أمراً بارادته الذاتية بل بارادة الله ، كأنه عزّ وعلا اختارهُ ليسكن فيه . ويقيني ان من امتلأ بروح الله شعر بتلك الحضرة الالهية فيه ، غير انهُ يكتم هذا السرّ الجليل في نفسه كما يكتم العاشق عن الملإِ أسرار غرامه . أما أنا فطالما شعرت بأني كشجرة الحور المنتصبة امام نافذتي . هي ساكنة في المساء لا تهتزّ وريقةٌ من وريقاتها ولا يتحرك من اغصانها

غصن ، وعندما يمرُّ بها نسيم الصباح فتترنّحُ أوراقها يظلّ الجذع راسخاً هادئاً . واذ يعود الخريف وتتناثر أوراق كانت بالامس مفعمةً حياةً فيعتريها الذبول يبقى ذلك الجذع في مكانه بلا حراك مترقباً مجيء ربيع آخر . . . »

لقد ألفت الفتاة هذه الحياة الروحية فمحاولة اخراجها منها إثم . أليس اني أنا أيضاً لم أفلح في التملّص من هذا العالم السحريّ الا بعد جهادٍ عنيف ؛ ومن يجزم بأنه ليس هو النصيب الافضل الذي لا يفنى وانا لسنا بضالين نحن الذين نعدو ونكد لاقتناص منافع تحطّ منا الهمة وتذبل القلب وتقرض الروح ؟

وهكذا كان كل اجتماع يثيرُ مذاكرة جديدة تكشف لي وجهاً مجهولاً من نفسٍ لا تُسبر ولا تحدّ . لم يكن حديثها سوى تفكرٍ واحساسٍ ينسجان كلاماً مسموعاً بدلاً من ان يتعاقبا في وحدة الوجدان . ولم تكن آراؤها آراء بل اجزاء حية منها عاشت معها أعواماً لانها كانت توردها بلا اجهاد ، كبنيةٍ ملأت حجرها أزهاراً وقامت تلقي بها على العشب الاخضر .
كان يسوؤني ان لا أفتح كتاب روحي تقرأ فيه ملياً كما أقرأ

في كتاب روحها . ما أندر المحتفظ منا بفطرته الاصلية في وسط اكاذيب اتفاقية تقبلها مكرهين - سَمّها ما شئت عادات، أو أدباً، أو تكتماً ، أو مراعاة، او حكمة اجتماعية ! وما أقل من يفلح في التفلت منها بين المخلصين المجاهدين ! بل ما أندر من يذكر ان حركاته انما هي وجه عارية، ونقاب سخرية أسدل على ملامح الحياة ! نحن نكذب في كل شيء حتى وفي الحبّ ، حتى وفي الحبّ الذي نسكته قهراً ، وننكر عليه التنهد والتلوّي والارتعاد ، ونحرجه الى التواري عوضاً عن التجلي في الاشارات وتقديم النفس ضحية في النظرات، نكذب في الحب الذي نسكته على ان يهمس في همهمة الشعراء . كم من مرة كدت أقول لها « أنت لا تعرفينني يا بنية » ولكني كنت أشعر بأن كلماتي لا تصدق الصدق كله . فعوّلت على ان اترك بين يديها مجموعة اشعار ارنولد التي وردت الي حديثاً، وسألتها ان تقرأ قصيدة الحياة الدفينة : وكان مغزاها الاعتراف بحبي . ثم جثوتُ قرب سريرها وقلت « مساء الخير ». فردّت بقولها « مساء الخير » ووضعت يدها علي رأسي . فجرت في أعصابي

تلك الهزة المستحبة وهبّ ما رقد في جوانحي من تذكارات الطفولة ، ولم أعد أستطيع حراكاً بل ظللت انظرّ في تينك العينين اللتين لا قرار لغورهما حتى افاض سلام روحها على روحي سلاماً . ثم نهضت ومضيت صامتاً ، ورأيت تلك الليلة في أحلامي حورة طويلة تتلاطم الرياح حولها دون ان تهتز عليها ورقة أو يتحرك منها غصن

الحياة الدفينة

النور يعلو ويغمر حروبنا الكلامية : انظري ، ها ان عيني تراودها الدموع واشعر بكآبةٍ مبهمة تلتف حولي وتمدّد . أجل ، نحن نعلم اننا نستطيع ان نمزح ونعلم ، نعلم اننا نستطيع ان نبتسم! ولكن في مهجتي حرقة لا تلطفها كلماتك الرقيقة ، ولا تسكنها منك البسمات

اعطيني يدك واصغي قليلا ، ولتستقر على عينيّ نظرة عينيك الصافيتين لأقرأ فيهما ، يا محبوبتي ، آيات روحك !

أواه ! هل يقصر الغرام دون فتح فؤادك واسماع صوته ؟

هل يحظر على المتيمين اظهار ما تكن قلوبهم ؟

كنت أعرف النـاس يضنون بأفكارهم لئلا يتلقـاها الآخرون ببرودٍ وجفاء ، كنت أعلم انهم يحيون ويتحركون مخدوعين خادعين ، متنكرين منسترين ، غرباء عن البشر ، غرباء عن ذواتهم! انما القلب بعينه ينبض في كل صدر بشري !

ولكن نحن ، يا محبوبتي ، أيسكت ذلك النهيُ الوهميّ قلوبنا ؟

وأصواتنا ؟ ـ أيجب ان نخرس نحن أيضاً ؟ آه ! ما أسعدنا اذا حررنا قلبنا ، ولو لحظة ، وحللنا قيود الشفاه لان السر الذي أطبقها وختم عليها تقدس في أعماقنا !

القدر الذي سبق فعلم كيف يكون الرجل طفلاً وكيف يكون زهوقاً ، وكيف تتقادفه المطامع فيخوض ميادين الشقاق والنزاع حتى لتكاد تتحوّر شخصيته ، فلا يتمكن من وقاية النفس الطاهرة من تلاعب الأهواء وان أرغمها على الخضوع لناموس الكيان ؛

ذلك القدر هو الذي يأمر نهر الحياة في صدرنا استطراد السير الى الامام

فننسى حركة ذلك النهر الدفين وان لازمناه وهو يجتاز عرض البحار وكنا مثله مسوقين على الدوام

ولكن كم من مرة في ازدحام السبل ،

وكم من مرةٍ في جلبة المصارعة وضوضاء التقاتل

يتصاعد فينا الشوق فنتنبه لحياتنا الدفينة :

ويتيقظ لدينا احتياج لصرف نار قوانا التي لا تعرف السكون ،

ويضنينا توق الى البحث عن أسرار القلب النابض بعنفٍ في أعماقنا لنعرف من أين تأتي أفكارنا والى أين تقصد !

كثيرٌ هم الذين يحفرون في قلوبهم وينبشون

لكن ، وا أسفاه ! قلّ من يشغل القلب وقلّ من يفهمه ويكفيه !

عالجنا الجم من شؤون الحياة فأظهرنا في كل فن حذقاً ومهارة ؛

على اننا لم نكن كما نحن في ذاتنا القصوى ولم نسر في سبيلنا الواحدة سويه ، ولم نفصح عن عاطفة من العواطف المتضاربة في صدرنا ،

وباطلاً حاولت أن تتكلم وتتحرك خلال تلك العواطف ذاتنا الخفية الصادقة !

فكانت أقوالنا وأفعالنا بليغة وحسنة ـ ولكن غير صحيحة !

واذ يثقل الألم علينا وطأة الجهاد نسأل صغائر الحياة قدرتها المدهشة للوصول الى النسيان والسلوان فتلبي طلبنا اذ نلتجيء اليها !

ولكن رغم كل مغالبة وكل قهر تنهض ، الوقت بعد الوقت ، من عمق أعماق الكيان كما من أرض قصية مجهولة ، تنهض أصوات ملتبسة بائسة ، وتنتشر أصداء طائفة سابحة فتملأ أيامنا كآبة وغماً

إنما ـ وهذا نادر الحدوث ـ عند ما نضم في يدنا يداً محبوبة ونقرأ بعينين يعذبهما دخان الساعات ولهيبها ، نقرأ بجلاء في عيني شخص آخر ، وتداعب سمعنا الذي أصمه ضجيج العالم نبرات صوت عزيز ـ

اذ ذاك تنبسط الأنوار في ارجاء جناننا وتضرب من جديد نبضات العاطفة الدفينة وتستقر لواحظنا في محاجرها ،

وينفتح كتاب القلب فنعني ما نقول ، ونقف على ما نود معرفته ، ويرقب الواحد منا فيض حياته ويسمع همسها الشيّق ، ويلمس حركتها المتتابعة ، فيتمتع بالحقول اللامعة ، ويتمتع بالشمس والنسيم .

وأخيراً ، أخيراً يداهم ذلك الفيض الحار هدوء حبس فيه الخيال المراوغ المدعو بالراحة : نسمة باردة تهب على وجهه ، وسكون غير مرغوب فيه يهجع في صدره ؛

اذ ذاك تخيله عارفاً آكاماً أشرقت عليها حياته وبحراً تسير اليه أعمار الأنهار !

الذكرى السادسة

في صباح الغد طُرق بابي باكراً ودخل عليّ طبيب البلدة الذي كان بصلاحه وعنايته صديق كلّ نفسٍ فيها . شهد تعاقب جيلين اثنين من أهلها والأطفال الذين دخلوا العالم على يده وصلوا الى دور الابوّة والامومة وما زال يعاملهم جميعاً معاملة الاب لأبنائه . لم يتزوج مع انه كان حتى في شيخوخته قوياً جميلاً . رأيته مذ عرفته كما يقف الآن امامي وعيناه الزرقاوان الرائقتان يلمعان تحت حاجبيه وشعرهُ الابيض الكثيف يتلوّى جعدياً ، وهو يلبس الجرابات البيضاء وهذا الحذاء ذا العرى الفضية ، وعلى ذراعه هذا الرداء البني الذي قضى عمره جديداً . وعصاهُ هذه الذهبية الرأس كان يحملها بعينها ايام طفولتي اذ يقف الى جانب سريري ليجس نبضي ويصف لي الدواء . ولقد تعدّدت الامراض في حداثتي الا ان ايماني بقدرة هذا الرجل كان كفيلاً بالشفاء لأني لم اشك لحظة في كفاءته وسطوته على

جميع العلل . فكان قول والدتي بوجوب استدعاء الطبيب يوازي عندي قولها بوجوب حضور الخياط ليفصل لي قميصاً وبذلةً . وما كان عليّ الا ان اتناول أول جرعة من الدواء لاشعر ببدء الشفاء والتحسن .

دخل الغرفة قائلاً « كيف حالك يا صديقي الصغير؟ أرى على وجهك دلائل التعب فلا تكثر من الدرس . ليس لديّ وقت طويل للحديث . انما جئت اقول لك أن تكفّ عن زيارة الكونتس ماري . لقد صرفتُ الليل قرب سريرها وانتَ علة اضطرابها فامتنع عن زيارتها إذا كانت حقيقة عزيزة عليك . ستذهب هي الى البرية قريباً وخير لك ان تسافر انت أيضاً وتغيب مدة . والآن عم صباحاً وكن أبداً ولداً صالحاً كما هو عهدي بك »

قال هذه الكلمات وتناول يدي ناظراً في عينيّ بعطفٍ مستفهماً كمن يود سلب الوعد سلباً . ثم غادرني ليعود الاطفال المرضى

أدهشني ان يهتدي غريب إلى أسرار نفسي قبل ان اكون على علمٍ تامٍ بها . غير اني لم أفكر في ذلك الا

عندما بلغ الطبيب أطراف الشارع ، فجاش قلبي كالماء طال مكوثه على النار فغلى فجأة وفار وعلا حتى ضاق عليهِ الاناء فتدفق

كيف لا أرى صديقتي بعد الآن وأنا لا أحيا الا ساعة اكون قربها ؟ سأقابلها هادئاً لا اتحرك ، وصامتاً لا اتكلم ، بل اكتفي بالوقوف عند النافذة وانظر اليها وهي نائمة تحلم . كيف لا أراها ؟ وكيف يمكنني ان لا أراها ؟ بل كيف لا أودّعها ؟ هي لا تعلم ـ ولا تستطيع أن تعلم ـ اني أحبها . وأنا لا أرجو شيئاً ولا طمع لي في شيء وقلبي ينبض بانتظام في حضرتها . انما احتاج الى الشعور بوجودها ، احتاج الى استنشاق روحها ، وعليَّ ان أزورها لانها تنتظرني . ترى أيجمعنا القدر بلا مأرب ؟ ألست انا تعزيتها وأليس انها موضع راحتي ؟ أتُدني الحياة بين روحين شأنها بذرّات الرمل في الصحراء ثم تبعث بريح سموم فتتلاعب بضعفها وتذرها في الهواء غباراً ؟ أليس ان نفوساً سعدت بالتقارب والتفاهم تحافظ على سعادتها ، ولا تفصل بينها قوة ولو اسرفت في الدفاع والنضال وقضت في سبيل

ذلك الاتصال ؟ وقد تحتقرني الفتاة ان انا جازفت بحبها وأجفلت لاول اشارةٍ اجفال تلك الشجرة عند دويّ الرعد في الفضاء .

توقفتُ بغتةً واذا بكلمة « حبها » تتراجع كالاصداء في جميع أنحاء قلبي مخيفةً مروّعة . « حبها » ؟ وماذا فعلت لأستحقه ؟ هي لا تعرفني الا قليلاً ، واذا استطاعت ان تحبني فعليّ مصارحتها بأني لستُ أهلاً لتلك النعمة . وأخذت أفكاري وآمالي تتصاعد في جوّ نفسي ثم تهبط يائسةً كاطيار تحاول التحليق في بعيد السماء وهي تجهل ان الاسلاك ضربت حولها سياجاً محكماً . ان لم تكن هذه السعادة سعادتي فلماذا تحلّ على مقربةٍ مني ؟ ألا يصنع الله العجائب؟ ألا يصنعها كل يوم وكل ساعة؟ ألم يصغ إلى صلواتي مراراً أرسلتها نحو علاهُ فعادت اليّ تحمل مساعدة للمنكوب وتعزيةً للمضنى ؟ أنا وهي لا ننشد خيراً دنيوياً ، الا ان نفسينا المتفاهمتين تودّان عبور هذه الحياة يداً بيدٍ ووجهاً ازاء وجه ـ وان اكون أنا عضدها في آلامها وان تكون هي تعزيتي او حملي الغالي ، وهكذا الى نهاية العمر . ولماذا لا يعد

الله بعمرها وينعم عليهـا من أيامها بربيعٍ بعد أوان الربيع ويبرىء سقامها ؟ ـ آه ! يا للصور العذبة تمرُّ أمام عينيّ ! هي تملك قصر والدتها في «التيرول» . هناك تمكث فوق الآكام الخضراء في هواء الجبال النقي بين اصحاء لم تضعفهم المدنية ، بعيداً عن هموم العالم وجهودهِ حيث لا حاسد ولا عذول . هناك ندرك بسلام غروب الحياة فتذوب أيامنا الاخيرة رويداً رويداً كاحمرار الشفق لدى هجوم الظلام . . .

تراءت لي البحيرة القائمة بامواجها الهادئة ترجع صورة الجبال البعيـدة يجلل الثلج أعاليها . وسمعت رنين اجراس القطيع واغاني الرعاة ، وخلتُ الشيوخ والشبان متجمعين عند المساء في مدخل القرية — وفوق هؤلاء جميعاً لمحت خيال الفتاة سابحاً كملك حب وسلام ، ورأيتُني دليلاً لها وصديقاً

عندئذ صرخت باعلى صوتي « يا لك من غبي ! يالك من غبي ! أخارت قواك وذلّ شممك ، وبلغ بك الحمق والغرور هذا المبلغ ؟ ألا تيقظ وانهض ، واذكر من أنت واذكر فروقاً تحول بينك وبينها ! هي صالحة لطيفة تسرّ برؤية نفسها منعكسة على مرآة نفسٍ اخرى . غير انّ ثقتها هذه الشبيهة بثقة

الاطفال ، وكيفية تصرفها معك ومعاملتها لك ، كلها تنم عن خلوّ فؤادها من عاطفة عميقة تحييك . ألم تر في ليالي الصيف المنيرة وانت تائه وحدك بين احراج الزان كيف يسكب البدر فضيّ أشعته على كلّ غصنٍ وكل ورقة ، ويضيء بركة الاسماك ذات المياه القائمة فيشرق ممثلاً في كل قطرةٍ وجزء من قطرة؟ ذاك موقف الفتاة ازاء ليل هذه الحياة ، ولئن نشرتْ في فؤادك نوراً ترتسم خلاله خطوط صورتها المأنوسة فلا ترجُ شعاعاً ، لا ترجُ شعاعاً حاراً لاذعاً ! لا ترج عاطفةً حارةً تشبمك وتحييك !

مثلتْ صورتها امامي مثول الحياة ليس كذكرى بل كرؤيا ، فاستوقفني جمالها . ذلك لم يكن جمال الرونق الزاهي الذي تفتننا به الفتاة الحسناء لأول نظرةٍ ثم ينقضي ويزول بزوال الربيع . بل كان جمال الانسجام والالتئام بين أجزاء كيانها ، وجمال الحركة الصادقة والتعبير الروحي ، ومعنى السكون المقيم . ان جمال الشكل واللون الذي تمنحه الطبيعة بنات حوّاء لا يُرضي الا اذا أظهرت صاحبته أهليةً لهُ بل وتغلباً عليه . والاَّ فهو يغضب ويسخط كأنه رداء

ملكيّ تجرره في المرسح ممثلة ذات فنٍّ خاملٍ سقيم . الجمال الروحي هو الجمال الوحيد يمدّ الصور الترابية الجامدة بالحياة والمعنى ويصيّر المنفّر جذاباً والقبيح مليحاً

كلما امعنت النظر في طيف الحبيبة أدركتُ منها نبل الجمال وعمق الروح كأن الوحي بذلك الجمال يهبط عليَّ بالتدريج . أواه انها لغبطة، انها لسعادة تلمس يدي ! وما غاية الزمن من تعذيبي؟ أيريني قمة الهناء ثم يلقي بي غدراً في القفار حيث الرمال المحرقة والوحدة الموجعة ؟ ما الغاية من اكتشاف كنوزٍ تحويها أرضنا هذه ؟ أليس دوام الشقاء خيراً من ان يحبّ المرء مرةً ثم يبقى الى الابد وحيداً، ويرجو يوماً ليسحق اليأس قلبه دواماً ، ويلمح النور طرفة ليصرف حياته في الظلمات كفيفاً ؟ هذا ألمٌ يفوق الآلام البشرية مجموعة بتمامها .

طال تشتت افكاري وتتابعها المشوش المختلّ ، الى ان هدأت عاصفة شعوري وتجمعت خواطري وانتظمت قليلاً قليلاً . يسمي الناس هذا الجمود تفكيراً ولكن التفكير في مثل ذلك محال وما لدينا من قوة سوى الترقب والانتظار .

وما هي نتيجة هذا وذاك ؟ هي تلك التي يشهدها الكيماوي بعد ان تتخذ العناصر أشكالها فيذهله ان نتائج التحليل تختلف عن مقدماته الاختلاف كله

كذلك كانت الكلمة التي لفظتها بعد العودة من غيبوبتي هي هذه « يجب ان أسافر ! » فجلست الى مكتبي و كتبت الى الطبيب اني سأغيب اسبوعين واني اترك الامر له . ثم انتحلت عذراً قدمته لأبويّ وغادرت البلدة في ذلك المساء ووجهتي جبال « التيرول »

الذكرى السابعة

ما أسعده فتى ذاك الذي جال في انحاء « التيرول » فتسلق جبالها الشاهقة وهبط أوديتها العميقة برفقة صديق محبوب : أليس ان حظاً كهذا يبعث فيه نشاطاً ويطيل منه العمر ؟ وما اشقى ذاك الذي يجوب البراري والقفار والغابات والمدن وحده لا نديم له سوى افكاره المؤلمة

ترى ماذا يهمني من هاتيك الجبال المتجلية بحللها الخضراء ، ومن هذه الوهاد الغائرة السوداء ، وتلك البحيرات الزرقاء ، والشلالات المتدفقة تتكسر فيها خطوط الانوار والظلمات ؟ عوضاً عن ان انظر اليها ها هي تنظر اليَّ وبها ذهول لدلائل اليأس المرسومة على الوجه البشري الماثل أمامها، وذهولها يسحق قلبي ويثقل عليَّ انفرادي اذ ليس في هذا العالم الواسع شخص يشتاق اليَّ ، ويرغب فيَّ ، ويؤثرني على أي احد غيري . كنت ارقد كل مساء واستيقظ كل صباح

بهذا اللهف المبرح ، كأنما هو نغمة نفذت في سمعي واحتلت ذاكرتي دون امل في الجلاء

دخلتُ ذات مساء احدى الفنادق تعب النفس والجسد وجلست بين الحضور فتوجهت اليَّ انظارهم ورأيت فيها خيال الشفقة على هذا الغريب التائه في ديارهم . فامضّتني جراح تلبي ومضيت اسعى تحت جنح الظلام حيث لا عين ترى ولا شفيق يشفق . وعدت الى غرفتي في اواخر الليل وانطرحت على مضجعي الملتهب مهمماً لنفسي باغنية شوبرت المعروفة «حيث لستَ موجوداً هناك السلام والطمأنينة » . ومرت الايام وحالي في ازدياد حتى أمسيت لا أحتمل منظر المغبوطين الضاحكين ومشاهد الطبيعة البديمة الدائمة ، فصرت انام ساعات النهار بطولها واصرف الليالي متجولا من مكان الى مكان . الا ان عاطفة قوية كانت تستولي عليَّ فتحول افكاري عن مجراها وتردني الى مخدعي ، وهي عاطفة الخوف أو احساس الخوف — سمِّه ما تشاء

نعم كنت أخاف في تلك الليالي القمراء اذ أتسلق اكتاف الاطواد في ادغال ليس بمعروف مداها ولا منتهاها

بمأمون؛ فتتوتر أعصابي ويتيقظ بصري ويرهف سمعي فارى اشباحاً بعيدة مبهمة ، وأتوجس اصواتاً ذات همس ودوي وطنين تنبعث من كل صوب ، وتتعثر قدمي في جذور انبثقت من شقوق الصخور ، هذا ان لم تزلق في عطفة بلّت ترابها مياه الشلال ؛ فينكمش فيّ فؤادي القانط وتهزه قشعريرة البرد وليس لديه من حرارة التذكار ما يدفئه ومن حلو الرجية ما يتعلّل به . ان من اخذه مرةً وجلُ الليل لعالم بانه وجلٌ يتناول النفس والجسد معاً

لا أشك ان الخوف كان اول عذاب الانسان يوم ظن نفسه منسياً من الله . ثم تشدد وخف اضطرابه بتعاون ابناء الله فيما بينهم واتفاق كلمتهم على التكاتف والتضامن . وهو لا يعرف الوحدة الساحقة واليأس الصميم الا عند ما يعوزه الحب والمعونة فيخال له انه انما انقطع عن شركة الاحياء لان الله هجره وأغفل وجوده . يساءل الطبيعة وعجائبها فيلقى من سكوتها هولاً لا مؤاساة ، وينقل خطواته على الارض المتينة الصلبة فتترنح تحت وطئه وتتوارى كزبد البحر وموجه . وان رفع بنظره نحو النور ينشره القمر صاعداً وراء احراج

الشربين حسب أشعته رؤوس حراب تطعن مهج الصخور ،
وخيوطه عقارب ساعة دارت دورتها زمناً ووقفت وقوفاً
لا ينتهي

النجوم تدور مسرعة في ابراجها السحيقة لا تلتفت
إلى تعساء الغبراء فلا تعزية في مشهدها بل هو يزيد النفس
شعوراً بالوحدة والهجران . وما من سلوى ممكنة في غير
عمل الطبيعة المستطرد بدقة يشمل الموجودات باسرها
لا تشويش يزعج ذلك النظام الكامل العظيم

هاك الشلال ، يا ايها المتأمل ! فان تدفق امواهه أنال
الجلاميد على جانبيه حياةً وكساها بطحلبٍ ذي خضرةٍ
قاتمة ، وفي ظل الجلاميد تختبيء تلك الزهرة النحيفة المدعوة
« لا تنسني! » . هذه واحدة من ملايين الزهرات المنورات
قرب كل ساقية وكل جدولٍ في كل روضٍ من رياض
الارض . وقد نورن في أمكنتهن مراراً عديدة منذ ان نثر
الكون على الخليقة ثروة حيويته التي لا نفاد لها . أُحصيت
جميع الخطوط في وريقات هذه الزهرة ، وعُدَّت جميع
الذرات في كأسها ، وضُبطت جميع ألياف جذعها فليس من

قوةٍ أرضية مهما طغت وبطشت ان تزيد عليها أو تنقص منها فتيلاً . واذا استعنا بالمجهر (المكرسكوب) لتبيّن عمل الطبيعة واكتشاف خفاياها في أدق انواع انتاجها وجدنا في أحشاء البذور الهادئة ، وفي البراعم والازهار والانسجة والخلايا ، الناموس ذاته متكرراً متجدداً ، ويظلُّ نظام الكون في أصغر الذرات وأنحف الالياف أبدياً لا يلمسه تغير ولا يلحق به تبديل . أنى توجهنا لقينا النظام الأوحد ، فالنفس من هذا العالم الصوري عين أحاطت بها المرايا ففقدت ذاتها في تكرار لا حد له ولا نهاية. وفي كل كائن وكل موجود يستقر الأبد الآبد الذي يختلب ذهنك ازاء هذه الزهرة النحيفة

وهناك في أعالي الفلك تجد النظام بعينه نافذاً في الاجرام الكبرى: فالاقمار تدور حول السيارات ، والسيارات حول الشموس، والشموس حول شموس اخرى وما السديم الخيالي السحيق الا عالم عجائب وقدرة وجمال . ولا تفتأ هذه الكواكب العظيمة تدور في أبراجها لتُظفر الارض بتوالي الفصول فتتمكن الزهرة من البروز والنمو ، وتنسج منها الخلايا وتنتشر الاوراق فترصع هي واخواتها بساط الحقول .

كذلك ينفذ النظام في الفراشة المتوسدة أحضان الازهار. فان يقظتها للوجود وتمتعها بالحيـاة وكيفية تنفسها ونموها لأعجب من نسيج النبات ودورة الشموس. ونحن البشر نظير كل كائن انما يختص بنا النظام الـكلي الخالد. فكم من موجودٍ انتبه من غفلة العدم وتحرك وعاش ثم اختفى غير تاركٍ لمروره من أثر!

فاذا كان الـكل بموجوداته الـكبيرة والصغيرة وما يدبرها من حكمة وقدرة، اذا كان هذا الـكل باعجوبة حياته وحياة أعاجيبه صنع كائن أحد فلماذا انت ترتعد وماذا تخشى؟ أليس الاحرى بك ان تخر ساجداً مدركاً ضعف نفسك وعدمها ثم ان ترفع عينيك نحوه واثقاً بحبه وعطفه؟ أليس ان فيك شيئاً أثمن من نسيج الازهار وأعضاء الخفافيش وأبراج السيارات؟ اذا كان ذلك ورأيت خيالك في صفحة الوجود محاطاً بتألق الـكائن الدائم وشعرت بحضوره فوقك وتحتك وفي داخلك وانما بذلك الحضور الالهي يصبح الشبح منك انساناً، والقلق عندك راحة، والانقطاع اشتراكاً، والانفراد واحدية كبرى؛ اذا كان

ذلك وعرفت انك تناجي الهكَ اذ تصرخ في ليل الحياة البهيم « أبتي ، فلتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض وكذلك فيّ ! » فكيف لا تنقشع عنك إذن غيوم الاكدار ويبزغ فجر السرور حاملاً معه تعزية ونوراً ؟ ان لك من الله يداً لا تهملك بل تظل تعضدك وتقودك عندما تهتز الراسيات وتنطفئ الشموس . حيثما حللت تكن معه ويكن معك وهو قريب اليك على الدوام . له الخليقة بورودها وأشواكها ، وله الانسان بأفراحه وأتراحه « ولا يحدث شيء الا بارادة الله وسماحه »

بمثل هذه الخواطر كنت اسلي نفسي فاتقبلها تارةً فرحاً وطوراً حزيناً . لانهُ ان نحن بلغنا لحظة مقر الراحة والسلام القائم في غور الروح فيتعذر علينا المكث هناك طويلا . وكثر من ينسى تلك الخلوة بعد الاهتداء اليها ، وينسى حتى السبيل الفكري الممتد بين العالم وبينها

انقضت الاسابيع ولم أتلقّ من فتاتي حرفاً . فساورني همٌّ جديد اذ قلت لنفسي « ربما توفيت وهي تستريح الآن في حضن السلام الابدي » فاقامت هذه الكلمات تحوم حول

شفتي وكلما بالغتُ في ازدجارها بالغت هي في اثبات معناها فعلام الازدجار وقد يكون حلّ المقـدور؟ ألم يقل الطبيب انها ضعيفة القلب وانه يتوقع ان تفارق الحيـاة من يوم الى يوم ؟ فهل أغتفر لنفسي تهاونها اذا غادرت صديقتي الدنيا دون ان اودعها وأبوح لها بحبي ولو في الساعة الاخيرة ؟ ألا يتحتم عليّ البحث عنها الآن لاستمع منها كلمات الحب والغفران ؟ لماذا يتردد النـاس في قضاء الشؤون ويؤجلون مخيرين غبطة تتيسر في الحال ناسين ان كل دقيقة قد تكون الاخيرة وان ما فقد من الزمن فقد فقد من الابدية ؟

فكرت في اجتماعي والطبيب قبيل السفر فأدركت اني لم أرحل الا لأثبت له اني قويٌّ صلب الارادة وقد عزّ عليّ الاعتراف بضعفي وباحتاجي الى صديقتي . فاتضح لي الواجب في الحال وهو العودة اليها على استعدادٍ لقبول ما تبعث به الينا السماء من فرح وترح . وذكرت قول الطبيب بقرب ذهابها الى البرية وقولها لي قبلئذٍ انها اعتادت الاصطياف في قصرها في التيرول . أتكون اذن على مقربة مني لا يفصل بيننا سوى سفر ساعات قلائل؟ ما كاد يتضح الفكر حتى عاجلتهُ

بالتنفيذ : غادرتُ المكان عند انبثاق الفجر ووجدني الغروب أمام قصرها

وكان المساء هادئاً جميلاً وقد ضرب مجد الغروب فوق قمم الجبال رواقاً عسجدياً فسبحت الهضاب في زرقةٍ وردية ، وتصاعد من الأودية ضباب رماديٌّ لجمل يستحيلَ لامعاً بملامسة الهواء المنير ، ثم اتجه نحو أعالي الجوّ كبحر ضياء متحرك . وتعدّد تلك الألوان وألاعيب هاتيك الأنوار كان ينعكس على صفحة البحيرة المضطربة فتبدو فيها ذُرى الجبال مراقصةً رؤوس الاشجار وسطح الكنيسة المستدير، وكأنّ تلك الرسوم في الماء كانت هي بعينها الحدّ الفاصل بين عالميّ المحسوس والخيال

استقرّت عيناي على القصر القديم حيث أرجو الاجتماع بها ، ولم يكن في النوافذ نور ولا حول الجدران صوت يقاق سكون المساء . ان قلبي ليحدثني بلقياها ، أيكذبني اليوم قلبي ويخونني الرجاء ؟ مشيت متمهلاً فاجتزت الباب الخارجي ووجدتني في ساحة القصر حيث يسير الجندي الحارس ذهاباً واياباً . بادرتهُ بالسؤال عن الكونتس فأجاب

انها في القصر . فقرعتُ جرس الدخول وانتظرت ، وفي تلك اللحظة دهشت لما أنا فاعل إذ قد لا يكون بين الخدم من يعرفني ، ولا أنا أجرأ على ذكر اسمي لأني قضيت الاسابيع الماضية تائهاً في الجبال وقد أهملت أمر لباسي وهندامي حتى صرت أشبه بالمتسوّلين . فماذا أقول ، وعمّن أسأل ؟ لم يطل هجسي لأن الباب فتح وظهر منه البواب في زيّ خدم الامراء وحدّق فيّ مبهوتاً

سألتُ عن السيدة الانجليزية وصيفة الكونتس فقال انها هناك . فطلبت قرطاساً وقلماً وكتبت اليها اني قدمتُ للاستعلام عن صحة الكونتس

فبعث البواب بالرسالة مع خادم سمعتُ وقع خطواتهِ المتباعدة في أبهاء القصر وممرّاتهِ ، وما تلاشت تلك الخطوات حتى صار موقفي لا يحتمل . فأخذت أنظر الى ما علّق على الجدران من صور افراد الأسرة الراحلين : فرسان تدجّجوا بالسلاح ، وسيدات ارتدين الزيّ القديم وفي وسطهن راهبة بثوبٍ ناصع البياض وعلى صدرها صليب أحمر . لقد رأيت هذه الصور قبل اليوم في أحوال مختلفة ولم أفكر

قط ان قلوباً خفقت في هذه الصدور . وها ان ملامح هذه الوجوه تظهر اليوم كتباً ملأى بالمعاني وكأنها تقول جميعاً « لقد عشنا نحن أيضاً وتألمنا مثلك » . نعم ، نعم تحت هذه الاملحة دُفنت أسرار كالتي تفطر الآن حشاشتي ، وفي صدر الراهبة ذات الثوب الأبيض والصليب الأحمر جاشت العواطف المتلاطمة الآن في صدري . خيّل اليّ ان العيون تطلّ عليّ من الرسوم مشفقة . ثم اختفت الشفقة وحلّ الكبرياء مكانها وقالت الصور وأهلها « أنت لست منّا ! » وكانت تمرّ الدقائق فينمو وجلي . إلى ان سمعتُ وقع اقدامٍ خفيفة . واذا بالسيدة الانجليزية تشير إليّ بدخول احدى الغرف . فنظرتُ اليها مستفسراً لأقف على ما تعرف ممّا جرى ولكنّ ملامحها بقيت هادئة لا يبدو عليها دهشة أو تعجّب أو أي اهتمام خاص . وقالت بصوت رزين ان صحة الكونتس في تحسن وانها ستقابلني بعد نصف ساعة

مثلما يأمل الغريق بالنجاة بعد يأس الموت اذ يرى نفسه آمناً على الشاطىء عقب ان تقاذفتهُ اللجج ـ كذلك كان وقع هذه الكلمات في نفسي . ها أنذا أدنو إذن من حقيقة جديدة

وما آلامي الماضية سوى أضغاث أحلام . قليلة هي هذه اللمحات ـ لمحات الغبطة المتناهية ـ في حياة الانسان وألوف ألوفٍ من البشر لا يتذوّقون هناءها . إنما الأُم التي تناغي رضيعها لأول مرّة ، والوالد الذي يذهب لاستقبال وحيده عائداً من الحرب وقد اثقلت جبهته أكاليل المجد والنصر ، والشاعر الذي تعترف له أمته بالعبقرية وتحييه بالهتاف والثناء، والشاب الذي يشعر بأن يد فتاتهِ تسيل حبّا في يده ـ أولئك وحدهم يدركون لذة الاحلام اذا هي انقلبت حقائق

مضى الوقت المعين فجاء الخادم وسار بي خلال غرفٍ كثيرة ثم فتح باباً فلمحتُ في نور الشفق الضئيل شبحاً أبيض أمام نافذةٍ عالية أطلّت على البحيرة والجبال المتلظية الساطعة

ـ « ما أعجب تلاقي البشر بعد الفراق الطويل ! »

سمعت صوتها العذب يلفظ هذه الكلمات فكانت كلٌّ منها برداً على قلبي وسلاما

فرددت كلماتها قائلاً « ما أعجب التلاقي وما أعجب

الفراق ! » وأمسكت يدها فأدركت اننا معاً وعلى مقربةٍ الواحد من الآخر

فقالت « اذا هم افترقوا فما الذنب الا ذنبهم » . قالت ذلك وصوتها المنسجم النبرات عادةً كموسيقى سماوية — يتهدّج قليلاً

فأجبتُ « صحيح . ولكن قولي لي أولاً كيف أنت ؟ هل نستطيع التكلم ؟ »

فقالت باسمة « يا صديقي العزيز ، انت تعلم ان صحتي غير جيدة ؛ فاذا زعمتها متحسنة فعلتُ حباً بطبيبي الذي أنا مدينة لعلمه وعطفه بحياتي منذ حداثتي القصوى . وقد وقفت حركة قلبي في احدى الليالي قبل مغادرتي المدينة فعانيت ألماً شديداً وحسبت تلك الحركة واقفة دواماً . فراعهُ ذلك ولكنهُ أمر مضى فلماذا نذكره ؟ شيء واحد يؤلمني : كنت أرجو ان يعانقني الموت بلا وجع والآن أعلم ان الاوجاع ستعذبني ساعة الرحيل وتفعم تلك الساعة مرارة » . ثم وضعت يدها على قلبها ، وتابعت « ولكن ، قل اين هذه الغيبة الطويلة ؟ ولماذا قطعت عني اخبارك ؟ لقد أورد لي الطبيب جملة أسباب

لسفرك الفجائي فصارحته القول اني لا اصدقه في واحد منها . فذكرلي أخيراً سبباً هو ادنى تلك الاسباب الى الغرابة . أتعلم ما هو ؟ »

فقاطعتها خوفاً من ان اسمع كلمة تؤلمني وقلت « قد يخال السبب وهمياً وهو ليس بوهميّ . وهذا مضى أيضاً فلماذا نذكره ؟ »

قالت « لماذا مضى يا صديقي ؟ عندما ذكر السبب الاخير قلت له اني لا افهم ما تعنيان ؟ انا فتاة عليلة بائسة وحياة جسدي موت بطيء ، وقد ارسلت لي السماء صديقين يرثيان لحالي أو يحباني — على زعم الدكتور — فاي شيء في ذلك يقلق راحتي أو راحتهما ؟ كنت اقرأ قصائد شاعري المحبوب وردسورث قبيل محادثة الطبيب فقلت له « يا طبيبي العزيز ان الافكار كثيرة متنوعة والكلام المعبر عنها قليل فنُرغم على تصوير ما لا نقصد ولا يفهم الآخرون ماذا نريد باستعمال كلمة واحدة فيؤولونها ما شاء الوهم والخيال . فلو سمع من يجهلنا اني أحب صديقي الفتى وانه هو الآخر يحبني لخالنا شبيهين بروميو وجولييت ، ولو كان الامر كذلك

لموافقتك على وجوب ملاشاته . ولـكن أليس انك تحبني
انت أيضاً يا طبيبي الشيخ كما أحبك ؟ ولقد أحببتك
اعواماً طوالاً ولا أدري هل بحت لك بذلك قبل الآن . فما
انا بيائسة ولا أنا بشقية . وأقول لك انك خصصتني بمودةٍ
شديدة وانك تغار من صديقي الفتى . ألا تأتيني كل صباحٍ
متفقداً حالي وانت تعلم انه لم يجدّ شيء ؟ ألا تقدّم لي اجمل
أزهار حديقتك ؟ ألم تحملني على اهداء صورتي اليك؟ وهناك
أمر آخر قد يحسن كتمانه — ألم تدخل عليّ يوم الاحد الماضي
فجلست قربي وأنت تحسبني مستغرقة في النوم ، وحدقت
فيّ طويلاً فكانت نظراتك كاشعة الشمس تلثم وجهي . ثم
بكيت واخفيت وجهك براحتيـك وقلت بصوت يقطعه
الشهيق « ماري ! ماري ! » آه ، يا طبيبي العزيز ! صديقنا
الفتى لم يأت أمراً كهذا فلماذا اقصيته عني ؟ » قلت ذلك
بلهجة جمعت بين الجد والمزاح كما اعتدت مخاطبتـه فتورّد
وجهه خجلاً واسفت لايلام عواطفه . ثم اخذت كتاب
وردسورث وقلت « هذا رجل آخر احبه بكل قلبي ، أفهمه
ويفهمني مع اني لم أره في حياتي . وأريد ان اتلو على

مسامعك احدى قصائده لتعلم كيف يحب البشر ويحبون وان الحب بركة الهيـة ينزلها المحب على المحبوب فيفرش طريقهُ بالورد والرياحين » . ثم قرأت له قصيدة « فتاة الجبال » . والآن ، يا صديقي الصغير، ادن السراج واتلُ لي هذه القصيده ذات المعاني المنعشة . ان روح الجمال الخفية تلامسها كما يلامس احمرار الشفق رؤوس الجبـال المكللة بالثلوج البيضاء »

تكلّمتْ فصارت عواطفي هادئة رضية جليلة . انتهت العاصفة وانعكس طيف البنية كصفحة البـدر على بحيرة حبي — بل على بحر الحب الشامل الذي يدعيـه كلٌّ لنفسه بينما هو ينتشر في كل مكان لأن منه حياة بني الانسان . الحب بحر الحياة الهادىء الثائر معاً في كل قلب ، المفرق بين القلوب والجامع بينها بعاطفة واحدة ووله ٍ واحد . وددت ان الزم الصمت كالطبيعة المنبسطة أمامنا . غير ان الكونتس دفعت اليّ الكتاب فقرأت : —

فتاة الجبال

« يا فتاة الجبال العذبة ، جمالك هو غناك الوحيد :
أربعة عشر ربيعاً سكبت على جبهتك بهاءها فحسبك هي
ثروة وجاهاً

« هذه الصخور الرمادية ، وتلك الاشجار الشبيهة
بستار اسفر عن نصف وجه السماء ، وذياك الشلال المهمم في
اذن البحيرة المنصتة ، وذيالك الخليج الصغير ، وهذه الطريق
الضيقة المؤدية الى مسكنك — جميعها تخال مرسومةً
بخطوط الاحلام وألوانها . وانا اباركك من أعماق قلبي ،
يا فتاةً يبعث جمالها في هذا النور الارضي نوراً سماوياً

« ليكن الله عونك حتى اليوم الاخير ! أنا لا اعرفك
ولا اعرف ذويك على ان العبرات تجول في عينيّ . سأذكرك
في صلواتي بخشوع بعد ذهابي لاني لم أر حتى اليوم وجهاً
كوجهك بدت فيه الرقة في حشمة واللطف في طهر تام

« تعيشين هنا بعيداً عن البشر كبذرة قذفت بها يد

الصدف ، فلا ترخين اجفانك خجلاً ولا ترتدي ملامحك احمرار الحياء . على جبهتك تتجلّى حرية أهل الجبال وصراحتهم ، وفي ابتسامتك يبسم الجود والحنان ، وعطفك يتدفق تدفق خواطرك المنمتقة من ذهنك رغم قيود جهلك وعلى قلّـة متاعك اللفظيّ . قيود تشعرين بها وتجاهدين في التغلب عليها فتجيء اشارتك مفعمة نشاطاً ولطفاً معاً . كذلك رأيت مرة أطياراً تصفق باجنحتها لمكافحة العاصفة

« كل يد تقطف لك الازهار ، أيتها الحسناء ، فيا سعد من عاش قربك في واد صغير كثيف الشجر كثير الزهر ، يلبس كملابسك ويرعى الأغنام مثلك ! وهناك أمنية خير من هذه : ولـكن —

« انت موجة من البحر الانسـاني العجيب . ليت لي بعض السلطة عليك وليتني من جيرانك لأتمتع بصوتك واهنأ بمرآك ! بل ليتني اخوك الاكبر او ابوك أو اي واحد من اقاربك !

« واني لأحمد السماء التي قادتني الى هذا المـكان المنفرد حيث عرفت السرور . سأذهب حاملاً معي الجزاء لان

للذاكرة ميزة كانها ميزة النظر . فلماذا اكره الابتعاد ؟
« وها اني افرح واتألم في آن واحد لفراقك، يا فتاة الجبال الحلوة ! وسأحفظ أبداً في ذاكرتي هذه المشاهد البهية حية كما اراها الآن — كوخك الحقير — والبحيرة — والخليج — والشلال — لا سيما أنت الروح المحيية جسم هذا الجمال »
وكانت معاني القصيدة تهبط على روحي كقطرات الندى . واذا بصوتها العذب يتصاعد كنغمة الارغن تنبه المصلّي من تأملاته العميقة ، فقالت :
« هكذا أريد أن تحبني يا صديقي ، وهكذا يحبني الطبيب ، وعلينا أن يحبّ بعضنا بعضاً هذا الحب وان يثق الواحد بالآخر هذه الثقة . وعلى قلة اختباري أظن ان العالم لا يفهم هذا الحبّ فجعل بنو الانسان هذه الارض صحراء يقطنها القحط والكآبة . لا بدّ ان الحال كانت على غير ما هي في غابر العصور والاّ لما حدّثنا هوميرس عن نوزيكا ذات القلب الحساس . أحبت نوزيكا أوديسفس للنظرة الأولى فأسرّت الى صويحباتها « حبذا الاقتران به ! وليت المقام يدنا يطيب له ! » ولكنها خجلت ان تسير مع غريب

لهُ هذا الجمال الباهر لئلا يقال انها بحثت عنهُ . فما أبسط هذه الحكاية وأقربها إلى الواقع ! وعندما قيل لها بوجوب رجوعه إلى زوجته وولده لم تتذمّر ولم تشكُ بل امتثلت واختفت ، ونحن القراء نشعر بأنها حملت أبداً في فؤادها صورة ذلك الغريب القويّ الجميل . لماذا يتجاهل شعراؤنا هذا الحب الصادق وهذا الفراق الهادىء ؟ أمّا الشاعر العصري فيخرج من نوزيكا حبيبةً لقرتز لأن الحب لم يعد سوى مقدمة لمأساة الزواج . أهذا هو الحب دون سواه ؟ هل جفّت ينابيع السعادة الطاهرة ؟ ألا يريد الناس ان يعرفوا من الحبّ غير الخمرة المسكرة ليتجاهلوا ينبوعه العذب الشافي الظمأ ؟ »

فأردت تعزيز كلامها واستشهدت بالشاعر الانجليزي القائل « ألا يحقّ لي ان ابكي لما فعل الانسان بالانسان ؟ »

فقالت « ما أسعد الشعراء ! كلماتهم تنطق العواطف الخرساء في الوف القلوب وتنشد الاصوات أناشيدهم لاظهار أسرار الجنان . فؤادهم يخفق في صدر الغني والفقير على السواء فيطرب معهم السعداء ويبكي التعساء لبكائهم . غير ان

وردسورث أحبهم اليّ : من أصدقائي من ينفي عنه الشاعرية. أما أنا فأحبُ منهُ اعراضه عن الاستعارات العادية ، وتجنبه الغلوّ والمبالغة وما يسمونه « الطيرة الشعرية » . هو صادقٌ. وأيّ ميزة توازي هذه ؟ هو يفتح عيوننا على الجمال المنثور تحت اقدامنا نثر زهرات الاقحوان في الرياض والمروج ، ويسمي الاشياء بأسمائهـا ، ولا يحاول إذهالنا وتغريرنا بل يرغب في اظهار الموجودات يزينهـا جمال الطبيعة قبل ان تشوهها يدُ الانسان . أليست قطرة الندى على الحشيش الأخضر أتم بهاءً وأوفى سناءً من لؤلؤةٍ ثمينة صيغت في قالب الذهب ؟ أوليس الينبوع المتدفق من صدر الارض أجلّ وأبدع من مياه فرساي الاصطناعية على الاطلاق ؟ أليست قصيدة « فتاة الجبال » ألطف وأصدق من « هيلانة » جوتي و « هايدي » بيرون ؟ اني آسفة لعدم وجود من يماثل وردسورث في جلاء الفكر وسذاجة التعبير بين شعرائنا. قد كان يشبههُ « شلر » لو انهُ استوحى خفايا نفسهِ مثلما استوحى تاريخ اليونان والرومان ؛ كذلك « روكرت » قد كان يدانيه لولا أنه آثر عيشة الرغد والرخاء بين ورود

الشرق على سكنى وطننا الفقير . قلَّ الجريء من الشعراء الراضي بنفسه ، المقدم على اظهارها مجرَّدة من الزوائد : وردسورث ذلك الشاعر . وكما نستمع برضىً إلى أعاظم النوابغ حتى عندما لا يكونون أعاظم أملاً في مشاركتهم في الشعاع الساطع المنزل اليهم من شمس اللانهاية كما شاركناهم في أفكارهم العادية المألوفة ـ كذلك أحبّ وردسورث ونَفَسه حتى في القصائد التي لم تضمّن فكرة مستحدثة . لا بدَّ لكبار الشعراء من نوبة راحةٍ يغيب فيها عنهم الوحي والبيان الخلاّب . فقد نقرأ عند هوميرس عشرات الابيات لا تزينها لمحة جمال ؛ وكذلك دانتي . بينا بندرس الذي يستفزّ اعجابكم جميعاً يضعف احتمالي وينفد صبري بدوام ذهولهِ وافتتانهِ . اني لأضحّي أثمن ما لديَّ لأتمكن من الاصطياف على شاطىء البحيرات حيث يقيم وردسورث فازور معه الأمكنة التي أحبَّ ووصف ، وأحيّي الاشجار التي حماها من ضرب الفؤوس ، وأرقب قربهُ غياب الشمس الذي أبدع في تصويره بالالفاظ ابداع مصوّرنا « ترنر » في تمثيله بالألوان »

لم يكن صوتها ليهبط شأن الأصوات الاخرى في نهاية الخطاب بل كان يرتفع ويقف على نبرة استفهام ، كأنها الطفل القائل « أليس كذلك ، يا أبي ؟ » كان ذلك الصوت يصعد نحو مخاطبها بدلاً من ان يهوي عليه ، تمازجه انّة توسل تجعل مخالفتها أمراً عسيراً

فقلت « وردسورت عزيز عليّ شاعراً وعزيز رجلاً . الافكار في شعره آكام صغيرة نتسلقها بلا تعب بينا هي عند غيره جبال باذخة محفوفة بالصعاب والاخطار . لم اكن اكترث له في البداية حين كان يذهلني ان يعجب به اكبر عقول انجلترا الحديثة هذا الاعجاب العظيم ؛ ولكني اقتنعت بالتالي ان شاعراً تنظر اليه امته نظرة الاكبار وتنزله من تقديرها تلك المكانة لجدير بان يُدرس ويستقصى ، وانما تجاهل وجوده خسران للمتجاهل . الاعجاب فنٌّ لا يكتسب بلا دراسة وتمرين : فمن الالمان من لا يذوق راسين ، ومن الانجليز من لا يفهم جوتي ، ومن الفرنسيين من لا يرى في شكسبير الا فلاحاً خشناً . وما مغزى ذلك ؟ مغزاه ان طفلاً غريراً يفضل موسيقى الرقص على ايقاعات

(Symphonies) بتهوفن ذات الفخامة والجلال . فن الاعجاب الصميم قائم في اكتشاف ارواح الشعوب والتعمق في دراسة كتب تكبرها الامم ، ومن بحث عن الجمال عثر عليه وعلم ان الشعوب لا تعظم من نوابغها الا من كان حقيقاً بالاعجاب ، وان الفرس لم يكونوا مخدوعين في حافظهم ، ولا الهنود في كاليداذا . لا يفهم الرجل العظيم من المجابهة الاولى ولا يوصلنا الى اكتناهه غير المثابرة والنصب والعمل . ومن الغريب ان ما يرضينا لاول نظرة لا يطول استحساننا له »

فقالت « ولكن هناك سراً يشترك في كتمانه واذاعته معاً جميع الشعراء وجميع الفنانين وجميع ابطال العالم سواء أكانو فرساً أو هنوداً او رومان او المان وا كاد لا ادري كيف أصفه : هو فكرة اللانهاية المنبسطة أمامهم ونراها نحن خلال كلامهم وآثارهم . هم يقرأون ما لا نقرأ في كتاب الابدية ويؤلهون الاشياء التي نزعمها صغيرة زائلة . أما سمعت غوتي ذلك الوثني الصميم منشداً كيف يؤلّه « السلام العذب النازل من السماء » حيث يقول :

« انتشر السلام على الهضاب :
وبين رؤوس الاشجار الباسقات
لا أثر لهبوب النسيم .
وصغار الطير نائمة في الغاب
فانتظر قليلاً ، عما قريب
ترتاح أنت كذلك »

عندما نسمع أو نقرأ هذا ألا نرى اشجار الصنوبر ووراءها المسافة الفيحاء انتشرت فيها راحة لا تستطيع الارض ان تنيلنا اياها ؟ فكرة اللانهاية تجدها أبدًا في قصائد وردسورث ، وذلك السر الكامن وراء الالفاظ والاسجاع والاوزان هو هو الذي يحرك القلب دون غيره . من ذا الذي فهم الجمال الارضي اكثر من ميكلانجلو الطلياني ؟ ولكنه فهمه لانه علم انه انعكاس الجمال السماوي . ألا تذكر موشحه لحبيبته ڤيتوريا كولونّا : —

« قوة الوجه الجميل تدفعني نحو السماء
ولا ارتياح على الارض الى وجه سواه ؛
وبه أحيا متعالياً بين الارواح المصطفاة
وهي موهبة قلّ ان يتمتع بها الانسان الفاني »

* * *

« ومع المدعِ الذي ادع ضمها ،

وبنعمته وبمساعدته ارفع اليه خواطري
وأوقع على انسجام صنيعه أفكاري وأعمالي
لاحب بحرارةٍ امرأة مليحة

* * *

وان قصرت دون تحويل نظري
عن عينيها الجميلتين المتألقتين
بنور يدلني الى سبيل الله ؟
ان قصرت واحرقني اللهيب علمت
ان تلك النار النبيلة المتأججة في قلبي
انما هي انعكاس الشعاع السامي
الساطع أبداً في ديار المجد والخلود »

بدت عليها آثار التعب فاحجمت عن الكلام فاحترمت سكوتها . ان قلوب الناس تميل الى الصمت بعد تبادل الافكار القيّمة ويخيل ان الملائكة ترفرف فوق رؤوسهم . نعم خيل اليّ ان اجنحة ملائكة الحب والسلام تخيم في تلك الغرفة . نظرت اليها فبدت بثوبها الابيض كالرؤيا تتجلى في الشفق العابس وانما يدها المستسلمة في يدي اثبتت لي حضورها الحسي . وأرسل الغروب المودع على محياها شعاعا باهتاً ففتحت عينيها وحدقت فيّ مدهوشة مستفسرة . فسطع

نور عينيها العجيبتين كبرق خاطف بين اجفانها الوطفاء . واذا بالبدر صاعداً بين الجبلين المقابلين يسكب ابتساماته على القرية الصغيرة والبحيرة الهادئة . لم أر حياتي مساء أبهى من ذلك المساء ووجهاً اجمل من ذلك الوجه — وجه الحبيبة كما كان في تلك الساعة . فشعرت بموجة حب تطفو فوق قلبي فقلت ثملاً « ماري ! دعيني اعترف لك بحبي وأنا بهذا الفتون! ألا تشعرين معي بقربنا الآن من السماء؟ ألا فلتتحد نفسانا بقوة لا تسطو عليها قوة ! دعيني أفضي اليك بحبي . اني احبك يا ماري كائناً الحب ما كان ، واشعر بانك لي لاني لك »

جثوت قربها ولم أجرأ على النظر الى عينيها . فسحبت يدها من يدي متمهلة مترددة في البدء وبالتالي مسرعة مصممة. فرفعت طرفي الى وجهها فرأيت عليه امارات الالم . وبعد سكوت طويل تململت وزفرت زفرة عميقة وقالت « كفى ؛ لقد آلمتني ، على ان الذنب ذنبي والتبعة عليّ . اقفل النافذة لاني احس ببرد قارس كأن يداً غريبة لمستني . ابق معي — لكن لا ، اذهب . وداعاً ، ونم نوماً هادئاً وابتهل الى الله ان يشملنا برعايته . سنجتمع مساء غد ؛ أليس كذلك ؟ »

أواه ، أين ذهب الهناء وكيف ولّت الطمأنينة ؟

خرجت من الغرفة وبعثت بالسيدة الانجليزية اليها وهمت في الظلام . مشيت طويلاً على شط البحيرة وعيناي يرقبان نافذة الغرفة التي ضمتني واياها منذ حين . أخيراً خبت جميع انوار القصر وتوسط القمر كبد السماء وسقطت اشعته عاموديا على الارض فبدت خطوط الشرفات والجدران من ذلك القصر كأنها أضيئت بفانوس سحري. وبقيت وحدي في الليل الادهم : افكاري موجعة ، وقلبي سقيم، ونفسي منفردة لا يحبها ولا يريدها في العالم أحد . شمت الارض نعشاً والسماء كفناً يدور حولي ولم أدر أحي أنا ام ميت قضى منذ زمن بعيد

واذ اطلت النظر الى النجوم ذات المقل اللامعات، وهي تتم دورتها بانتظام حسبتها منثورة في الفضاء لتنير القلوب المظلمة وتعزي النفوس الآيسة . اذ ذاك فكرت في نجمين سماويين أشرقا من عيني الكونتس ماري على افقي الحالك السواد وسجدت في فؤادي عاطفة الشكر والحنان لفتاتي المذبة وملكي الحارس الامين

:

الذكرى الاخيرة

كانت الشمس مشرقة على رؤوس الجبال وقد دخلت أشعتها من النافذة ساعة استيقظت من رقادي . أهذه هي الشمس التي شيعتها البارحة بنظرات الرجاء والغرام عند ما انبسط قرصها كيدِ صديقٍ يبارك اتحاد قلبينا ، ثم هبطت وتوارت كمضمحلّ الآمال ؟ ها هي الآن مشرقة تأتي إليّ كطفل يهنئني بعيدٍ ميمون . لقد عادت اليّ حيويتي المعتادة وتذبهت فيَّ الثقة بالله وبنفسي ، ترى آأنا هو ذاك الفتى الذي انطرح على الفراش منذ ساعات قلائل مضنى الجسد خائر الروح ؟

ما حالنا لولا سنّة الكرى ؟ نحن نجهل إلى أيّ العوالم يمضي بنا هذا الرسول الليليّ حينما نستسلم له بعيون مغمضة وليس من يتكفل بفتحها في الغد ليعيدنا إلى يقظة العمر . لقد تعلق الانسان بأهداب الشجاعة والايمان يوم تلقّاه الصديق المجهول فنوّمه النومة الاولى ، ولولا ما فطرنا عليه من ثقةٍ وامتثال لأبى الواحد منّا ، رغم التعب والنصَب ،

أن يغمض عينيه بمحض ارادته ويدخل مملكة النوم . انما هما الضعف والشقاء تشتد علينا وطأتهما فنلجأ الى قوةٍ عليا ونرضخ للنظام البديع النافذ في جميع الكائنات ، فنسعد ابان الرقاد بحلّ الروابط التي تقيد ذاتنا الأبدية الخالدة بذاتنا الأرضية الزائلة

كل ما جرى بالامس وكان في ذهني مبهماً كضباب المساء أصبح الساعة جلياً . شعرت بتقاربنا الواحد من الآخر كأننا أخ وأخت ، أو أب وابن ، أو خاطب ومخطوبه — واننا لا يحول بيننا انفصال . بحثتُ عن معنى ما يدعوه البشر « حباً » ووددت ، كالشاعر ، ان أكون أخاها أو أباها أو أي قريب لها . وددتُ أن اهتدي الى اسمٍ يعرفني الناس به عندها لان العالم ينكر من لم يحمل اسماً وكنيةً . هي قالت انها تحبني حبّاً طاهراً يكنهُ قلبها للنوع الانسانيّ بأسره وهو مصدر كلّ صنوف الحب . غير انهـا خافت وتألمت لسماع اعترافي ، وهذا الألم وذاك الخوف اللذان أتعساني البارحة هما اليوم في عينيّ حجةٌ راسخة على عاطفة تخصني بها . لماذا نحن نسعى في تفهم نفوس الاخرين ونفوسنا مغلقة على

بحثنا ؟ ولماذا يستأسرنا ما لا نحسن تمييزه في الطبيعة والافراد والقلوب ؟ أما الاشخاص الذين نعرف منهم جميع الحركات النفسية والبواعث الفكرية فلا ننفعل بتأثيرهم ولا نعيرهم التفاتاً ، ولا شيء يكلح البهجة والرونق من محيّا الحياة كزعم أولئك المـاديين الذين يشرّحون المعاني ويحللونها تحليلاً علمياً لينفوا عجائب النفوس واسرار الافئدة . انّ في كل كائنٍ غموضاً يستحيل ادراكهُ ويتعذر تعريفهُ : أهو إلهام ، أو قدَر ، أو خلق ؟ لا الفرد يعي معنى ذلك الغموض المستتر فيه ولا اهتدى الباحثون الى تفسيرٍ مقنع مرضيّ . وهكذا كل ما حملني بالأمس على القنوط صار اليوم ينبوع أمل . ومازلتُ بقلبي أعللهُ حتى تبدّدت الغيوم من جوّ مستقبلي السعيد

خرجتُ إلى الهواء الطلق واذا برسولٍ يحمل من الكونتس كتاباً . عرفتُ خط يدها الجميل الرزين فرجوت في تلك اللحظة أعز ما يرجوه العاشق . ويالسرعان ما خابت آمالي ! سألتني في الرسالة أن لا أزورها بعد الظهر لأنها تنتظر ضيوفاً من المدينة ، ولم تخط كلمة مودة أو كلمة

تطمين ، وانما أضافت حاشية معناها ان الطبيب يأتي غداً فاللقاء الى بعد غدٍ

يومان يمزّقان من كتاب حياتي ! ويا ليتهما لم يكونا فلا أحتملهما فوق رأسي كسقف سجن مظلم . عليّ ان اصبر عليهما ولست مخيراً في التصدّق بهما على ملك عوجل بالخلع عن عرشه ، أو في التبرّع بهما لمتسوّلٍ يدور حول أبواب المعابد . أطرقتُ وطال اطراقي ، فذكرتُ صلاة الصباح لأن اليائس أحوج ما يكون الى الايمان ، وكالفارس يرى الهوة امامه فيحكم شدّ اللجام ، قلت « فليكن ما لا مناص منهُ ! ولأقبلنهُ طائعاً دون تذمّر فالله لم يخلقنا للغمّ والمراثي »

ولماذا لا أتعزى بهذه السطور التي خطتها يدها ؟ ولماذا لا أتعزى بأمل الاجتماع القريب ؟ سل من عالج السباحة يشرْ بوجوب رفع رأسك فوق الامواج ، والاّ فاغطس ولا تدع من فمك وعينيك للماء سبيلاً . ان لم ترضنا الحياة كواجب فلنقبلها ونعالجها كفنٍّ . كلنا هنا أطفال ، ولكن ما أغباه طفلاً يستسلم للغضب او يركن الى العبوس كلما

شعر بألم أو حبط له مسعى ! وما أحبهُ طفلاً ان بكى ظلت شمس السرور مشرقة في عينيه شروق الزهرة الناضرة وراء غيث نيسان ، فلا يطول حتى تنفتح اوراقها ويفوح طيبها لأن حرارة الشمس تمتص عنها قطرات المطر ·

وعادت اليَّ خاطرة فبدأت انفذها : ذاك اني طالما تمنيتُ تدوين كل كلمة سمعتها منها واثبات ما ائتمنتني عليه من جميل الآراء . وها قد حان الوقت الملائم . فصرفت اليومين مستحضراً ساعات اللقاء محيياً آثارها . وكنت قريباً منها شاعراً بحبها كأني ممسك بيدها

وما اغلى تلك الصفحات لديَّ ! كم من مرةٍ قرأتها واعدتُ قراءتها ! هذه شهود سعادتي الغابرة ، يطلُّ من بين سطورها عليَّ وجهٌ معروف وينظر اليَّ صامتاً وسكوتهُ أفصح من الفصاحة . يتلو عليَّ ذكريات الاسى والهناء فيرجعني الى الماضي وانطرح على مجموعة حوادثه كالام على ضريح ولدها الميت منذ اعوام ولا رجاء لها بضمّهِ الى صدرها مرةً اخرى ـ هذه العاطفة نسميها حزناً ، ولكنَّ في الحزن غبطةً يعرفها الذين احبوا كثيراً وتألموا كثيراً

سل الوالدة عمّا تشعر به عند ما تسدل على وجه ابنتها العروس نقاباً لبسته يوم زواجها ، مفكرة في زوجها الذي أخذته المنية فحرمتها منه . سل الشاب عما يشعرُ به ازاء وردة ذابلة جاءتهُ من حبيبته المتوفية وكان أهداها اليها قبل ان يفرق بينهما العالم. كلاهما يبكي وليست دموعهما دموع فرح ولا دموع ترح ، بل هي دموع ضحيةٍ قدّمت آلامها إلى الله بخوراً بعد فناء الآمال ، وقنعت بالايمان والثقة بحكمته غير المتناهية

ولنعد الى التذكارات التي تجعل الماضي حاضراً : انقضى اليومان وجوانحي تختلج حبوراً كلما ولّت ساعة فآذنت بقرب اللقاء . وقد كثرت المركبات في اليوم الأول وجاء الفرسان من المدينة فامتلأ القصر بالضيوف والزائرين وخفقت فوق قببه الألوية وصدحت الموسيقى في ساحاتِه . وعند ما أرخى الظلام سدوله ازدحمت الزوارق والقوارب في البحيرة وتردّدت على صفحة الماء أصداء الاناشيد والاغاني. فأطلتُ الاصغاء لعلمي انها هي الاخرى مصغية من نافذتها . وظلت الحركة والجلبة في القصر الى ما بعد ظهر اليوم التالي

حيث عاد الضيوف أدراجهم، وآخر مركبة عادت في المساء الى المدينة كانت مركبة الطبيب .

عندئذ ضاق صبري وفكرت « ها هي وحدها ، أشعر انها تفكر فيَّ وتتمنى وجودي معها . أأترك ليلة أخرى تمرُّ دون أن ألمس يدها فرحاً بانتهاء الفراق وابتداء التلاقي الجديد ؟ أرى في نافذتها نوراً فهل أدعها هناك بلا رفيق ؟ ألا يصحّ ان اتمتع ولو هنيهة بحضورها العذب ؟ » وجدتني فجأة امام بابها وقد ارتفعت يدي لقرع الجرس. فتوقفت قائلا « ألا سحقاً للضعف والتبذّل ! إن أنا دخلت عليها الآن وقفت أمامها خجلاً كسارق يتوارى بالظلام . سآتي اليها صباح غدٍ ، سأعود اليها كبطلٍ أستحق ان تضفر لجبينيهِ اكليل الحب »

جاء الصباح وذهبت اليها . أواه ! لا تقولوا ، أيها الروحيون ، ان الروح تحيا بلا جسد ! الحياة الحقيقية والسعادة التامة لا يجتمعان الاّ حيث يتوحد الروح والجسد فيصيران روحاً جسديةً وجسداً روحياً . الروح بلا جسد شبح ، والجسد بلا روح جثة . وهل تخلو زهرة الحقل من

الروح ؟ أليس انها تبرز بقدرة الفكر الباري الذي ينيلها الحياة والجمال ؟ ذلك الفكر هو روحها ولكنهُ أبكم فيها بينا هو ناطق في الانسان . الحياة الحقيقية حياة الروح والجسد معاً ، والاجتماع الحقيقي اجتماع الارواح والاجساد جميعاً . أما العالم الذي عشت فيه سعيداً يومين كاملين فقد اضمحلّ الآن كالخيال ، أو كتنهد العدم ، لاني الساعة أراها بالروح والجسد

تمنيت أن أضع يدي على جبهتها وألمس أجفانها لأ تثبت من وجودها بالذات وليس بالصورة الحائمة حول روحي ليل نهار ، بل كشخصٍ غير شخصي يحبني ويتوق إليّ ، شخص أثق به ثقتي بنفسي ، بعيد عني انما أقرب اليّ من نفسي وبدونه ليست حياتي بالحياة ، ولا موتي بالموت ، وما أنا سوى لهاث ضائع في الفضاء غير المتناهي

استقرّت عليها طويلاً انظاري وافكاري فشعرت بتكامل الحياة فيّ ولم يعد يرهبني الموت لانه لا يقوى على افناء هذا الحب العظيم إنما هو يكسبهُ متانةً ونبلاً

ما اعذب السكوت قربها وقد تجلت نفسها في وضع

اعضائها ومجموع هيئتها وتتابعت السرائر في عينيها ! بقيتُ صامتاً وشيء في يصغي كأني سمعتها تهمس في قلبها « انك تؤلمني » . ثم بعد هنيهة « هل اجتمعنا مرةً اخرى ؟ كن هادئاً ولا تيأس ، لا تسل ولا تستفهم ، اني ارحب بك فلا تسخط عليّ » . كل هذا قرأته في عينيها ولكنها لم تتلفظ بكلمة منهُ . وفتحت شفتيها أخيراً وقالت بصوتٍ متهدج « ألم يصلك كتاب من الطبيب ؟ »

أجبتُ « كلا »

فقالت « الافضل اذن ان تسمع الخبر مني . اعلم يا صديقي انا نلتقي اليوم للمرّة الاخيرة . فلنفترق بلا تذمر . لقد أسأت اليك عن جهل إذ كيف أعلم ان للنسيم العليل من القوة ما يسقط عن الزهرة وريقاتها ! كنت قليلة الخبرة فلم أتوقع ان توحي اليك فتاة بائسة نظيري سوى عواطف الرحمة والاشفاق . ولقد انزلتك على الرحب والسعة لانك صديقي منذ أعوام طويلة ، وسعدت بلقياك — لماذا أخفي الحقيقة ؟ — لأني كنت أحبك . انما المجتمع لا يفهم هذا الحب ولا يسمح به . لقد فتح الطبيب عينيّ وأخبرني ان

حكايتنا شائعة تتفكه بتفاصيلها أندية المدينة ، وكتب اليّ أخي الامير يسألني ان أقطع كل علاقة بيني وبينك . ان أسفي لألمك شديد . ولكن قل لي انك تعفو عني ، ولنفترق صديقين كما التقينا »

قالت هذا وأسبلت اجفانها لتخفي عني دموعها . فاجبته « لي يا ماري حياة واحدة وهي قربك ، وارادة واحدة وهي ارادتك . أحبك بحرارة الحب وحرقته ولكني لست أهلاً لك . أنت ارفع مني مقاماً وشرفاً وطهراً فكيف أرجو ان ادعوك يوماً زوجتي ؟ وليس ثمت من وسيلة اخرى لنسير معاً في سبيل الحياة . ماري ، أنت حرة وانا لا أريد ان تضحي لاجلي شيئاً ما . العالم واسع وان اردت الفراق فلن نجتمع . ولكن اذا شعرت بحب لي وبانك خاصتي فاعرضي عن المجتمع وانسي احكامه البلهاء ، ودعيني احملك على ذراعي الى الهيكل فاجثو هناك واقسم ان اكون لك في الحياة والموت »

فاجابت متمهلة « تمني المستحيل حرام يا صديقي . لو شاء الله ان يجمع بيننا لما بعث اليّ بهذه الاوجاع التي تجعلني

طفلة عاجزة بائسة . لا تنس ان ما ندعوه قضاء وقدراً ، أو ظروفاً ، أو فروقاً اجتماعية انما هو في الحقيقة ارادة الله ، ومن طمع في التغلب عليها فقد عصى الله وكان غراً دعياً ان لم يكن شاذاً أثيماً . انما الناس على الارض كالكواكب في عرض الفضاء يسلكون سبيلاً خطتها يد الله فان تواجه فيها اثنان فذاك الى حين ثم يفترقان مسيّرين . وباطلاً يحتجان ويقاومان فنظام الكون باقٍ على ما هو الى الابد . أنا لا ارى موضع الخطأ في حبي لك . غير ان الآخرين يرونه فحسبي يا صديقي . ولنمتثل بتواضع وايمان »

كان صوتها هادئاً يئن فيه الالم العميق ، ولم أشأ ان اتخلى عن الجهاد منذ الخطوة الاولى ، فضبطت انفعالي ما امكن لئلا اتهور مجازفاً بكلمة تزيد في ألمها وقلت « تقولين ان هذه مقابلتنا الاخيرة فدعيني اعلم لمن نضحي ذواتنا . لو خالف حبنا نظاماً علوياً لامتثلت معك بتواضع وايمان . ولكن الحب هو ارادة الروح السامية وتسخير تلك الارادة هو انكار ارادة الله . طالما حاول الانسان مخادعة الله كأن دهاءه كفيل بتضليل الحكمة الربانية . وهذا محض جنون نصيب من

اقتحمه نصيب قزم يبارز جباراً فليس أمامه من عاقبة سوى ان يسحق ويتلاشى . لا شيء يقوم في وجه حبنا غير التقول والافتراء ، فما هو التقوّل والافتراء؟ أنا احترم انظمة المجتمع، احترمها حتى في تشعبها وارتباكها الحالي لان الجسم العليل لا يشفى بغير العلاج المركب . وبدون الفروق الاجتماعية والاصطلاحات والعادات التي كثيراً ما نضحك منها يستحيل ترابط البشر فيما بينهم والتعاون لبلوغ غاية وجدنا على الارض لننتهي اليها . فيتحتّم اذاً تضحية الشيء الكثير لتلك الآلهة الكاذبة ، وكأهل اثينا الذين كانوا يرسلون كل عام سفينة مشحونة بالشبان والفتيات يقدمونهم قرباناً ، علينا ان ننحر الضحايا على هيكل الحيوان المسيطر على تركيب نظامنا الاجتماعي . ولكن ثقي انه ليس من قلب حساس رقيق الاّ تعذب وتفطر ، ولا من رجل ذي ادراك وشعور الا وأرغم على اطباق جناحي حبه ليسجنه في القفص الاتفاقي الضيق وذلك حادث ابداً قديم جديد . أنت لا تعرفين المجتمع . ولكني لو قصرت الكلام على اصحابي لاسمعتك من المفجعات ما يملأ اسفاراً : احبّ احدهم فتاة فاحبته هي كذلك .

ولـكنه كان فقيراً وكانت هي غنية ، فتخاصم الأهل والمعارف وتقاذفوا السباب والشتائم وكانت النتيجة انسحاق القلبين . لماذا ؟ لأن المجتمع يرى منتهى الحطة والذل في ان ترتدي السيدة ثوباً مصنوعاً من صوف النبات الامريكي وليس من نسيج الدودة الصينية

« أحبَّ آخر فتاةً فأحبته أيضاً . ولـكنهُ كان بروتستانياً وكانت هي كاثوليكية . فقامت عليهما قيامة الكهنة والامهات وانسحق القلبان . لماذا ؟ لأنه حصلت مناورات سياسية بين تشارلس الخامس وفرنسيس الاول وهنري الثامن منذ ثلاثة قرون

« وأحب غيره فتاةً فأحبتهُ هي ايضاً . ولـكنهُ كان شريفاً ولم تكن هي ذات حسب ، فتصلَّبت كبرياء اخوته وألهبت الغيرة اخواتها وانسحق القلبان . لماذا ؟ لان جندياً قتل آخر كان يتهدد حياة الملك وعرشه منذ عشرات أو مئات الاعوام فأغدق عليه مولاه الألقاب والرتب ، وها ان حفيدهُ اليوم يكفّر عن ذلك الدم المسفوك بخلقٍ نخرهُ الفساد وصحة ترعى فيها العلل :

« يقول علماء الاحصاء ان عدد القلوب المتفطرة يوازي عدد الساعات . وأنا أميل الى التصديق ، لماذا ؟ لأن المجتمع ينكر كلّ حبّ بين غريبين ان لم يرتبطا برباط الزواج . فان أحبت فتاتان رجلاً ضحيت احداهما ، وان أحبّ رجلان امرأة تحتم ان يضحي أحدهما أو ان يضحيا معاً . لماذا ؟ لماذا يحظر على رجل حبّ فتاة ليس لهُ أن يقترن بهـا . أكل الحبّ في أن يهرب الرجل بالمرأة كأنها غنيمة حربية ؟ أراك تغمضين عينيك فادرك اني أطلت الكلام . لقد دنس المجتمع أقدس معاني الحياة ، فاسمعي يا ماري . فلنستعمل لغة العالم عند ما نكون فيه متكلمين ممثلين فاعلين . ولـكن فلنحفظ بعيداً عنهُ محراباً طاهراً يختلي فيه قلبان صادقان ليتكلما بلغة الحبّ والاخلاص دون ان يتأثرا بغضبه أو يكترثا لصواعقه . والمجتمع يكبر هذه المقاومة العنيفة من قلبٍ أدرك حقوقهُ وعرف عظمتهُ فآثرها على الاحكام البلهـاء . لا بأس بالاصطلاحات والعادات في حال اعتدالها لأنه حسن ان تعرش « اللبلابا » بالوف الاغصان والحبال على الجدار القوي . ولكن حذار من الافراط لئلا يجد النبتُ الطفيليُّ منفذاً

الى داخل البنيان فيفسد إحكام أجزائه ويهدم متانة أركانه. ان حبنا لا يضرُّ بشراً ولا يؤذي أحداً بل يسعد نفسينا ويرفعنا إلى عرش مبدعنا . فاتبعي مشورة قلبك واصغي الى صوت ضميرك ثم أجيبي . ماري ، كوني لي ! اعلمي ان الكلمة المرتعشة الآن على شفتيك انما هي حكم عليَّ وعليكِ بالسعادة أو بالشقاء »

صمتتْ وضغطتْ على يدها فضغطت على يدي بأنامل ملتهبة وقد بدا التأثر في وجهها وحركاتها . والسماء الزرقاء المنشورة فوق رأسي لم ارها حياتي على جمال ظهرت فيه الآن وقد هدَّدتها الزوبعة وانفذت اليها الغيوم واحدةً بعد اخرى

ثم قالت كمن يتعمدْ تأجيل القرار النهائي « ولماذا تحبني ؟ »

اجبت « بل سلي الطفل لماذا ولد ، والشجرة لماذا ازهرت ، وسلي الشمس لماذا بزغت فأنارت الكون ! لماذا احبك يا بنية ، لأنه يجب ان احبك . وان شئت اسباباً فدعي الكتاب الذي تحبين يتكلم لاجلي : —

« أفضل الناس يجب ان يكون اعز الناس الينا دون ان نعبأ بما يلحقنا بسببه من ربح وخسارة ، او مساعدة واهمال ، او شرف وذل، او ثناء ومذمة ، او اي امر من الامور . احسن الاشياء وأشرفها يجب ان يكون اعزها الينا لا لسبب آخر سوى انهُ الاحسن والاشرف . وعلى هذا المبدأ ينظم المرء حياته الداخلية والخارجية لأنّ بين الاشخاص تغايراً فيكون هذا خيراً من ذاك وفقاً لمقدار ما يظهر فيه من الخير الاسمى الذي يتجلى في افراد اكثر منه في غيرها . والفرد الذي يكثر فيه تجلي الخير الاسمى هو الاحسن ، والذي يقل فيه ذلك التجلي هو الاقل حسناً . فعلينا ان نتنبه لهذا الاختلاف بين الناس حتى اذا اهتدينا الى خيرهم أحببناه وأعززناه والتصقنا به طلباً للاتحاد الدائم »

« وانت، يا ماري، خير من عرفت لذلك احبك وانت عزيزة عليّ . وكلانا يحبُّ الآخر . فقولي الكلمة الواحدة التي تكبر وتحيا فيك ـ قولي انك لي ! لا تخوني قلبك ولا تخدعي عواطفك . اعطاك الله حياةً معذبة ثم ارسلني اليك لأخففها عنك ؛ فألمك ألمي ، وسنحمل هذه الآلام معاً بشجاعةٍ كما تخترق البحر السفينة العظيمة رغم عواصف الحياة وأعاصيرها حاملة الاثقال الباهظة وتوصلها إلى الشطّ الامين . تكلمي يا بنية وضعي رأسك على ساعدي»

فهدأ روعها وخضبَ الاحمرار وجنتيها كما تخضب حمرة

الشفق رؤوس الجبال ؛ ثم فتحت عينيها البراقتين كشموس منيرة وقالت « انا لك . انا خاصتك لان تلك مشيئة الله . اقبلني كما انا : فسأظل لك ما حييت وليجمعنا الله في حياة ابهج من هذه وليكافئك خير مكافأة ! »

وضعت قلبي قرب قلبها ليخفقا سوية ، وأوقفت شفتاي الكلام على الشفتين اللتين نطقتا بدوام سعادتي كما أوقف الزمان دورته ، وتلاشى العالم حولنا ولم يمكث فيه غيرنا برهةً خلتها دهراً — دهر غرام وهناء . ثم زفرت زفرة عميقة هامسة « اغتفر لي ربي كل هذه السعادة ! والآن اذهب ودعني وحدي لعلنا نلتقي مرة اخرى ، يا صديقي ومحبوبي ومستودع غبطتي ! »

. . . .

هذه آخر كلمات سمعتها منها . عدت الى غرفتي ونمت نوماً طويلاً مثقلاً بالاحلام المزعجة . وبعد انتصاف الليل دخل عليّ الطبيب وقال « لقد انتقلت ملكنا الطاهر الى حضن خالقها . وهذه وديعة منها اليك »

فضضت الكتاب فوجدت فيه ذلك الخاتم المنقوش

عليه « كما يشاء الله » وكانت اعطتنيه في طفولتي ثم رددته اليها ، وكان ملفوفاً بورقة كتبت عليها الكلمات التي فهت بها ساعتئذ « كل ما لك هو لي — خاصتك ، ماري »

جلست وجلس الطبيب وغرقنا في بحرانٍ عقليٍّ يعرفه كل من فوجىء بيأسٍ لا رجاء بعده . اخيراً نهض الشيخ ومسك بيدي قائلاً — « نحن نلتقي اليوم للمرة الاخيرة : أما انت فعليك ان تغادر المكان ، واما انا فايامي معدودة . غير اني اود ان ابوح لك بسر حملته دفيناً في صدري طول الحياة ولم أُطلع عليه احداً ، والآن بي حاجة ماسة الى افشائه ، فاصغ اليّ . ان الروح التي فارقتنا روح شريفة طاهرة والقلب الذي غادرنا قلب صادق عميق . عرفت قلباً آخر كهذا وروحاً كهذه الروح — بل ابهى منها ، هي روح والدتها . عرفت والدة هذه الفتاة قبل زواجها فاحببتها واحبتني . كنا فقيرين فانشأت أجد وأكدّ لا نتشلها من مخالب العوز والفاقة ولأصل الى مكانة اجتماعية تليق بي وبها . وقبل ان ادرك غايتي اجتمع بها الامير الشاب واحبها . ولما رأيت امير بلادي مولعاً بها يبذل ما في وسعه ليعلي شأنها ويرفعها ، هي اليتيمة البائسة ،

الى مرتبة الامارة — شعرت بوجوب تضحية سعادتي لاجلها لان حبي لها كان اقوى من حبي لنفسي . فغادرت البلدة وتركت لها خطاباً فيه حللتها من وعودها . ولم أرها بعد ذلك الا وهي على فراش الموت عقب ولادة ابنتها هذه . يمكنك بعد هذا الاقرار ان تدرك مقدار حبي لحبيبتك واني انما كنت احاول اطالة عمرها يوماً فيوماً لانها كانت الشخص الوحيد الذي يربط قلبي بالارض

« والآن ! سر في طريقك يا بنيّ واحتمل الحياة كما احتملتها ، ولا تصرف يوماً واحداً في الغم العقيم . ساعد ما استطعت المحتاجين من اخوانك البشر ، واحببهم جميعاً ، واشكر الله الذي انعم عليك في هذه الحياة الجرداء بقلب كقلبها ، وحب كحبها ، وروح كروحها — وان فقدتها ! »

فقلت ممتثلاً « كما يشاء الله » . وافترقنا افتراقاً لم يكن بعده من لقاء

. . . .

لقد مرت الايام والاسابيع والشهور والاعوام سابحة في بحر الابدية . وطني صار لي أرضاً غريبة وبلاد الغرباء

اصبحت وطني . لكن حب فتاتي لا يزال حياً فيّ . وكما تسقط دمعة القلب على مياه البحار كذلك غرق حبي لها في بحر حبي للانسانية باسرها — حبي الذي يشمل ملايين من اولئك الغرباء الذين لا يعرفونني وقد شغفت بهم منذ حداثتي

. . . .

إنما في ايام الصيف الساكنة الحارة كهذا اليوم ، عندما أخلو بالغابة الخضراء في حضن أمي الطبيعة ، وتتوه بي أفكاري فلا أعود ادري ما إذا كان في العالم اناس غيري ام أنا وجدت وحدي على الارض ، اذ ذاك تحدث حركة في مقبرة حافظتي وتنهض الذكريات السحيقة من مدافنها وترجع قوّة الحب القديم قابضةً على فؤادي بشدةٍ فأُنادي تلك الفتاة الجميلة ، فتأتي اليّ وتحدق فيّ مرة اخرى بعينيها العميقتين اللتين لا قرار لهما . عندئذ يتجمع حبي للانسانية ويتجسّم في حبي لشخصها — لشخص ملكي الحارس . فتخرس افكاري وتجثو عواطفي أمام سر الاسرار الغامض ، سر الحب المتناهي وغير المتناهي

﴿ تمّت ﴾

كتب اخرى بقلم « مي »



المقدمة بقلم العلامة الدكتور صروف

الى ميّ

« سيدتي النابغة :

« لك علي فضل لا يجحد ولا يحد : لقد اقرأتيني كتاباً »

« نحن في زمن أشباه الكتاب فيه كثير ولكن الكتاب الحقيق بهذا الاسم قليل . وعلى رأس هذا القليل لا أتحاشى أن أضع مجموع تلك الفصول التي كشفت بها النقاب عن حقيقة باحثة البادية وأضفت الى حليها المعنوية الشائقة من حلي ما جعلها من أعظم مفاخر عصرها في مصرها

« كتاب مفصلٌ تفصيلاً يمتع مطالعة ويطرب تلاوة وترتيلا

« أفي وقتنا نحن ؟

« أفي لساننا العربي الحديث هذا الكتاب الذي نتناوله فلا ندعه حتى نأتي عليه ؟

« أذهنٌ شرقي هذا الذهن الذي يضع المقدمة ويعقب عليها بالبيان الشافي مفرعاً متتبعاً حتى يفضي طبيعة الى النتائج ويا لها تارة من حقائق ألمية وطورا من عظات رائعات

« يا روح ملك في أعلى ملأ اقر واعترف لديك باخعاً خاشعاً آسفاً كاسفاً . انني جهلتك قبل أن اطالع مقال ميّ ، ميّ اليقظة ، ميّ الفطنة، ميّ المتعقبة للحركة النسوية بتنبه وعطف ، المعقبة عليها بكل ما يقومها ويقويها

« أنا أول من حيي الآنسة « ملك » كريمة أستاذنا المرحوم العالم الشهير والاديب الصميم الكبير حفني ناصف في المجلة المصرية بعنوان بزوغ شمس حين استتمت وهي فتاة تأديبها وبدأت تجرب قلمها ناظمة فلما تزوجت ظننتها وئدت كما كانت توأد البنات الى عهدها بعد زفافهن. ثم لما طفقت تترسل ناشرة في الصحف ما يعنّ لها لم أحسبها في الفريق العامل بجد وموالاة على انهاض صنوانها في الجنس اللطيف ولم اخلها موحدة الغاية والقصد التماساً لتحقيق ذلك الرأي الذي هو معتقدها واليه مرماها . ظلمتها في كل ذلك . لانني حملتها على محمل اخواتها اللواتي تصدين للتحرير في الجرائد قبلها وما أشد الخطأ في مثل هذا القياس

« أما الآن فقد أنصفها فكري ولكتابك الفضل · منه تبينت انك طالعت كل حرف خطته باحثة البادية وانك تعقبتها في كل حياتها الادبية العلمية. وانك لم تفتك شاردة ولا واردة مما نبض به قلبها لاختها في الوطنية والدين بتولاً وزوجاً وأماً . فلما نظرت فيها من وجوه كونها مسلمة ومصرية وكاتبة وناقدة ومصلحة نظراً مقرراً للحق ، نافياً للريب ، استكشفت مكنونات ضميرها بمجهرك المبين وأوضحت غرضها ايضاحاً اليه سينتهي البحث يوم يلتمس الوقوف على مبدأ النهضة التي قيض بها عود الجسم الاجتماعي في الكنانة الى سلامته التامة أي سلامته في شطريه كليهما

« حللت تلك النفس وشرحت دقائقها تبينين بذلك للجمهور ما لم

يكن الا الخاصة المتنورون ليتبينوه . تأتين بالقاعدة بعد القاعدة، وتدلين بالحجة اثر الحجة ، وكل أولئك صادر عن ينبوع في فؤادك جمعت اليه المطالعات والتجاريب شتيت أنهارها وافضت اليه المعارف المختلفة بعيد أسرارها

« ما أجمل الانشاء عن علم وليس في ظاهره ما يشير الى ذلك أو يدل عليه . هنالك آية الابداع ونهاية المستطاع

«ليس ما قدم الا يسيراً من كثير المحاسن التي ضمنها بحثك الوافي ولله ما بين تينك الدفتين من الجنات والكوثر الجاري بين الضفتين

« هنالك الشعر الا ما يثقله من القيود ، شعر الادب والفلسفة ، شعر الصلاح والاصلاح للمجتمع البشري في بعضه المهمل ، شعر الحلي اللفظية وغير اللفظية تديرها الطبيعة السمحة ، المنوّعه ، الشائقة المشوّقة، صنوف روائعها وطيباتها عبيراً لوناً ونوراً

«هنالك النثر . وأي نثر هو. النثر الجديد. كلام الزمن الذي نعيش فيه ، منقحاً، مصححاً، مقلداً كل معجب ودقيق من زينات الفصاحة، مضمناً كل مطرب ورقيق من نفحات الطهارة والقوة والسماحة ، متدرجاً في براعة الاسلوب احياناً الى أن يوهم أمثالي وهم يقرأون صامتين آياتك الفريدة أو كلماتك الرهيبة أنهم يرونك في جلال مواقفك العامة ويسمعونك خطيبة

« انك يا سيدتي لم تزيديني الا اعجاباً بذكائك الباهر وقدرتك التي تفوقت بها على الادبيات شرقاً وقد أقول غرباً

« فانا أشكر لك هديتك الجليلة بهذه الكلمات القليلة وناظراي يسموان بأشعة السرور والاعجاب الى وجهك الوضيء المتلألىء بنور

الوحي وأثر الألم ومحجراي يسيلان دموعاً على ثرى أنفس دُرّةٍ زفها انس الخدور الى وحشة القبور »

(الاهرام)　　　　خليل مطران

غاية الحياة

« محاضرة القيت في الجامعة المصرية في ٢٩ ابريل سنة ١٩٢١ »

« اجابةً لطلب جمعية « فتاة مصر الفتاة »

«خلقت «مي » لتكون شاعرة في نثرها كما اعدت لتكون حكيمة في شبابها . وقلما تخلو كتاباتها من جمع هاتين الصفتين تصوغ المعاني والاراء الحكيمة في شعر منثور تنظمه سمطاً نفيساً او تجعله طاقةزهر انيقة معطرة الشذا في آنية البلور الصافي او الصيني السيفر الغالي

« وتعالج الموضوع الدقيق الذي يتحاماه المجربون فتجعل له من الوجوه والمظاهر ما لفص الماس اذا عالجه الصانع الماهر فاخرج من الفلزة الغشيمة ما يصلح لزينة الملوك والملكات والمترفين والمترفات

« وقد يتم الله نعمته على المخلوق فيجمع فيه الموهبتين ويغدق عليه النعمتين ولكن في ما تكتبه مي صفة اخرى تخلل جميع مؤلفاتها ومصنفاتها فانها تنظر الى الاشياء بعين الشباب فترى كتابتها تقطر أملا ورجاء . وتنظر اليها بعين الخبرة والمران فتجدها تتفجر علماً وخبرة حتى لقد يحار من يقرأ كتاباتها وهو لا يعرفها في هل هي فتاة في مقتبل

«العمر لا تزال تنظر الى الدنيا وقد اصطبغت في عينها بلون الورد او نصف ترى الحياة بعين من ذاق حلوها ومرها وسقي خلها وخمرها

« خذ هذه المحاضرة التي القتها مي بعنوان غاية الحياة فانها من بعض الوجوه كالحجارة المنقوشة القائمة على أعمدة هياكل بعلبك الشاهقة تراها من اسفل فتحسب نقوشها تطريزاً او وشياً في دقته فاذا دنوت منها القيتها من خير ما يرمز به الى القوه والمتانة والثبات

«نظرت مي الى الحياة نظرة قد تكون اقرب الى الخيال منها الى الحقيقة ولكنها رفعت غاية الحياة ولا سيما حياة المرأة الى مستوى ان لم يتيسر بلوغه في هذه الدنيا فلا بأس بان يكون غاية توضع نصب العيون وتتوق النفوس الى بلوغها. وقد يسخر من خابت آماله في الحياة بالنظريات السامية والمطالب البعيدة ولكن هذا لا يطمس حقيقة ظاهرة في تاريخ العمران وهي أن الحضارة قائمة على نظريات وقواعد لا تلمس باليد ولا تقع تحت البصر ولولا ايقان الناس بها لما انتظم عمران ولا فضل الانسان الحيوان

« واذا كان القرن العشرون سيكون عصر نهضة النساء كما تدل الدلائل فيجدر بنساء الشرق أن يمعن النظر في ما هن قادمات عليه من مهام وأعمال لا تنتظم الا بادراك خير معاني الحياة واسماها. ولكل من يعينهن في بلوغ هذه الغاية فضل يردده الخلف كما رددت مي فضل قاسم امين في ختام محاضرتها التي نشير بمطالعتها واستيعاب ما فيها

«وقد طبعت هذه المحاضرة طبعاً حسناً في كراس وتطلب من المكاتب الشهيرة وباعة الجرائد » (المقطم)

زهرات الحلم

Fleurs de Rêve, par Isis Copia

« اهدي الينا نسخة من ديوان فرنسوي عنوانه « زهرات الحلم » وهو مجموعة قصائد ومقاطيع لكاتبة أديبة استعارت اسم ايزيس كوبيا ورأت ان توقع الديوان به حباً بالاحتجاب ولكن العارية شفافة والنكهة نمامة فعرفناها واذا هي

فتاةٌ تساوي عقدها وكلامها ومبسمها الدريُّ في الحسن والنظم

« ورأينا ان نحيل الديوان على حضرة الشاعر الغني عن التعريف والتلقيب خليل مطران ورجونا منه ان يقرظه لان احسن من ينقد الشعر شاعر وهذا ما كتبه في هذا الصدد . قال :

إيزيس كوبيا

« اطلعتُ على الكتيب الذي رغبتم اليَّ في قراءته واذاعة كلمة عنه

« كل كتاب يبقى في نفس متصفحه مثالا من نفس واضعه . وتلك المجموعة المحتوية على خليط عطر من نظم ونثر بلسان فرنسوي سهل فصيح قد شخصت لي صاحبتها المستعيرة لادبها اسم ايزيس كوبيا تشخيصاً لا أظنه يقع بجانب الحقيقة ما لم تكن العواطف التي فيها مستعارة كالاسم

« ايزيس كوبيا فتاة تشعر شعوراً شديداً بالقيود المقيدة بها المرأة الشرقية تلك القيود الحريرية الدقيقة كنسج العنكبوت ، المتينة متانة أسلاك الذهب

« أجدها وراء الشعرية تعمل أصابعها في الشبك الحاجب لتفتح ه»

فيه منظراً أفسح ترى منه وترى ، وان ترى جائز عندها او مستحسن
« بل يستشف من بعض شكاياتها انها تذهب الى أبعد من هـذه الامنية الى البروز في ميدان العمل والمناضلة وطلب المجد والنصر
«تمضي بها تصوراتها الى حيث تمضي تصورات نظائرها بنات الجنس اللطيف من العوالم الخيالية الرائقة الالوان الشائقة للحواس التي تشرب انوارها دموع الحزن كما تشرب دموع السرور ولكنها تعود ابداً الى مطالب لهـا عند الشاب وعند العصر وعند اخواتها واخوتها من بني الانسان واخص تلك المطالب ان تعيش طليقة وان تجد جدها وان تكون في الحياة ظافرة لا عاثرة
«لها شغف وأي شغف بالشاعر الفرنسوي لامارتين لان في نفسها ولا بد شيئاً من التقوى أو من التدين الا انهـا تطبع من امالهـا على غراره ما يرن رنين كلامه ولكن مع مخالفة احياناً يشعر منها ان الرنة أقرب الى الصليل منها إلى قوة العزيمة
«وعلى الجملة طائر جميل يضرب في قفصه ويؤثر على النعمة السابغة والعيش الرغد ان يخرج الى الفضاء وينطلق ويجاهد ويغصب سعادته غصباً ويتغنى حراً

(الاخبار)　　　　　　　　خليل مطران

« هذا كتاب فرنسي العبارة ، عربي الخيال ، نظم عربية شهيرة ، هي الآنسة ميّ ، (ماري زيادة) التي استعارت لها اسم (ايسيس كوپيا) في ما تنشئه باللغة الفرنسية »
« كنا نظن ان الانسان اذا اتقن لغة ، لا سيما لغة آبائه ، فقلمـا يجد لغة أخرى ، لا سيما لغة ليست من اخوات لغته الوطنيـة فاذا بالآنسة مي قد اظهرت ما في هذا الظن من الوهم والوهن »

« أول ما بدأت به من تقييد نفثات قلمها السال كتيب بديع النسج فرنسي العبارة سمته (ازهار الحلم) وقد حبكت درره ولآلئه حينما كانت تلميذة صغيرة وأتمت ما بقي منه في الشهور الاولى بعد عودتها الى بيت والدها ، حيث لم تنقطع من متابعة دروسها

« أتحفتنا الكاتبة الفذة بين النساء كتيبها الانيق فوجدنا شعرها رقيق الحاشية ، موشي الديباجة قد تصرفت في الخيال ، تصرف المصور في ضروب رسم الحقائق على احسن مثال . وزفت من بنات الافكار ، ما يزري بالمخدرات الابكار ، حتى لم تبق في المخيلة صورة الا وأحسنت ابرازها بابلغ ما يمكن من التعبير الصادق ، وباجود الكلم المفرغة في اجمل القوالب ، فقلنا في نفسنا : هل ناظمة هذه السموط عربية تفرنجت ؟ أم فرنجية تعربت ؟ ثم قلنا : لعل اعجابنا بابنة عربية هو الداعي الى استحسان ، ما يعقد لسانها من الجمان ، فعرضنا تلك القصائد الفرائد ، على أبناء اللغة الفرنسية أنفسهم ممن يجيدون النظم والوشي ، فاذا هم قد أعجبوا بها ، كما اعجبنا ، ولم يصدقوا أنها من نفس عربية ولدت في الشرق .

« فأكرم بآنسة حلت من مقام الشعر هذا المحل الرفيع ، ولتتعقب غرات الاوشحة هذه الجائلة البريم فمنها — لا عن غيرها — قد قيل :

فلو كان النساء كمن ذكرنا لفضلت النساء على الرجال

وما التأنيث لاسم الشمس عيب ولا التذكير فخر للهلال »

(دار السلام)